رواء
مجلة فكرية دورية

• العلم التجريبي بين التأليه والإسقاط

• الحديث الضعيف .. كيف ظهر؟ ولماذا رواه المحدثون؟

• كأس العالم ٢٠٢٢م صراع الهوية وحسابات الربح والخسارة

• التفاضل بين حقوق الرجال والنساء

# إرث «المستعمر» قيودٌ تكبّل المتحرِّرين

18
العدد الثامن عشر
جمادى الآخرة ١٤٤٤ هـ
كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٢

## هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

| تأصيل | حضارة وفكر | دعوة | نظرات نقدية | قضايا معاصرة | تزكية | قراءات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| مواد تتناول تأصيل المنهج، وتقعيده ووضع ضوابطه وأسسه بصورة بنائية | مواد تتناول قضايا حضارية وفكرية | مواد تتناول فقه وأصول الدعوة، والأساليب والوسائل والتجارب الدعوية | لتصحيح المفاهيم والتصورات | مواد تتناول السياسة الشرعية ومآلات الأمور، وتطبيقات المصالح والمفاسد على القضايا المستجدة | في التربية والتزكية والأخلاق | قراءات في الكتب والرسائل العلمية ونقدها وإظهار محاسنها |

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

## سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

هيئة الشام الإسلامية

# رَواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

## أسرة التحرير

**د. عماد الدين خيتي**
رئيس التحرير

**أ. ياسر المقداد**
مدير التحرير

**أ. محمود درمش**
سكرتير التحرير

**أ. جهاد خيتي**

**أ. عبد الملك الصالح**

التصميم والإخراج الفني
موشنات
Creative Agency
motionat.com

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
**rawaa@islamicsham.org**

**www.rawaamagazine.com**
**www.islamicsham.org**

**rawaamagazine**

١
إرث «المستعمر»
قيودٌ تكبِّل المتحرِّرين

٢
العلم التجريبي
بين التأليه والإسقاط

٣
الحديث الضعيف
كيف ظهر؟ ولماذا رواه
المحدِّثون؟

٤
منهج ابن تيمية في
التعامل مع المخالفين

٥
اللاجئ والأمان النفسي

٦
كأس العالم ٢٠٢٢
صراع الهوية وحسابات
الربح والخسارة

٧
التفاضل
بين حقوق الرجال
والنساء

٨
النظام
في المجتمع:
ضرورته وأثره

٩
سلسلة الخطأ..
أنواعٌ وعلاجات

١٠
قراءة في كتاب:
«الفطرية بعثة التجديد
المقبلة» د. فريد الأنصاري

١١
بأقلام القراء

١٢
الورقة الأخيرة:
جاءَهُ الأعمى

كلمة التحرير

# إرثُ «المستعمر» قيودٌ تكبّل المتحرّرين

أدَّت الثورة الصناعية في أوروبا إلى إحداث تغييرات جذرية في بنية المجتمع على جميع الأصعدة، ومن أهم هذه التغييرات: النفسية الثائرة الناقمة على سنوات التخلُّف والاضطهاد السابقة، والحركة العلمية المندفعة التي تحرَّرت من أسر الاستعباد الكنسي-الملكي، وحاجتها الكبيرة للمواد التي تستعملُها في صناعتها، وتطلُّعها لما وراء البحار من الأراضي وما فيها من كنوز وثروات، وحاجتُها للأيدي العاملة الرخيصة التي تُسخِّرُها للقيام بهذه الأعمال والصناعات.

وإلى جانب ذلك كانت تنمو في العقلية والذهنية الأوروبية مشاعر التفوق على بقية الشعوب والأمم، ونظرةُ الازدراء والاحتقار لما عداه من الأعراق، وانضمَّت لها النزعة الصليبية التي تسري في الكنيسة التي لا يزال لها مكانة روحية في نفوس المستعمرين، بما فيها من أحلام بناء الإمبراطوريات الكبيرة، فتولَّد من مجموع ذلك أشرس حركة عسكرية دينية اقتصادية عرفها التاريخ للاستيلاء على بلدان العالم والسيطرة على مواردها.

**تتلخَّص النظرة الأوروبية لشعوب البلاد المحتلَّة أنهم شعوب متخلِّفة، بدائية، وأنَّهم في رُتبة الحيوانات، ولذلك استحلُّوا خيرات بلادهم، وعملوا على استعبادهم وإبادة من شاؤوا منهم، وفرضوا دينهم عليهم بالحديد والنار**

## سيرة المحتل:

لم يعرف التاريخ حركة توسُّع أسوأ من حركة الاحتلال الحديثة؛ إذ لم تكتفِ باحتلال الأراضي لتوسعة النفوذ، بل أضافت لها أمورًا في غاية الخطورة والإجرام، أبرزها:

» اعتبار الاستيلاء على البلاد حقًا مشروعًا، نابعًا من نظرة التفوُّق العرقي على بقية الشعوب، واعتقاد دونيَّتها وعدم وجود حقوق لها، بل والمنُّ على هذه «الشعوب البدائية المتوحشة» بنقلها إلى نور الحضارة على يديهم.

» امتصاص ثروات ومقدَّرات البلاد، والعمل على نهب كل ما تصل إليه أيديهم من أموالٍ وثرواتٍ وممتلكاتٍ، لم تسلم منه الآثار والممتلكات الثقافية كالكتب والمخطوطات، ونحوها.

» استعباد الشعوب؛ حيث كانت النظرة الأوروبية لشعوب البلاد المحتلَّة أنهم شعوب متخلِّفة، بدائية، وأنَّهم في رُتبة الحيوانات، حتى أقاموا في بلادهم ما يسمَّى بـ«حدائق الحيوانات البشرية» وضعوا فيها أفرادًا من شعوب البلاد المستعمَرة لغرض تسلية وملء غرور المواطن الأوروبي، وضمن هذه النظرة أسروا الملايين منهم واستعبدوهم، وباعوهم عبيدًا، ونقلوهم للقارة الأوروبية للعمل بالسُّخرة في الأعمال الشاقَّة، ويُقَدَّر عدد العبيد المختطفين من القارة الإفريقيَّة، الذين وصلوا أحياء ما بين ٣٠-٤٠ مليون إفريقي، وذلك دون حساب مَنْ هلكوا أثناء عمليَّات الإغارة بهدف الخطف والقنص، ودون حساب مَنْ قضوا بسبب أهوال رحلة السفر[١].

» المجازر الكبرى وحملات الإبادة لكل من يعترض على هذه المعاملة أو يقاومها، فعلى سبيل المثال يقَدَّر عدد من أبادهم المستعمرون الإسبان والإنجليز وغيرهم من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية أكثر من ٩٠ مليون نسمة، على امتداد عدة قرون بدءًا من لحظة اكتشاف كولومبوس للقارّة، وتسجِّل الإحصاءات حوالي ١٠ ملايين من ضحايا المستعمر الفرنسي في الجزائر، وفي الكونغو حوالي ١٠ ملايين من ضحايا

(١) عايدة العزب موسى: تجارة العبيد في إفريقيا، ص٣٨، ١٨٦.

بلجيكا، بل سميت الكونغو بأرض الأيادي المقطوعة من كثرة من قطِّعت أيديهم، وكانت تقدَّم الجوائز لمن يجمع أكبر عددٍ من جماجم السكان الأصليين في بعض البلدان.

» وأخطر ما اجترحه الاحتلال هو العبث في الهوية، حيث عمل على تغيير أديان الشعوب ولغاتها وثقافتها، فبمجرَّد أن وطئت أقدامه البلادَ المحتلة، شرعت البعثات التنصيرية المزوَّدة بمختلف الوسائل وجيوش الرهبان في تحويل السكان إلى الدين الجديد بقوَّة المال والسلطة والحديد والنار، وفي تبديل اللغة في التعليم والدوائر الرسمية ثم في الإعلام إلى لغته، وأُجبِر الناس على التعامل بها حتى أصبحت لغتَهم الأم، والتي لا تزال إلى اليوم في كثير من البلدان، كما في جميع بلدان أمريكا الجنوبية، وبعض بلدان شرق آسيا وأفريقيا.

**خرج المحتلُّون من البلاد المستعمَرة لما تبيَّن استحالة بقائهم المباشر، بسبب مقاومة الشعوب لهم، والتنافس فيما بينهم، وتراجع قوَّتهم لصالح قوىً أخرى، ونموِّ نداءاتٍ معارضةٍ لسياساتهم في داخل بلادهم**

## خروج المحتلّ:

لم تقف الشعوب مستسلمةً متفرِّجةً على جرائم وممارسات دول الاحتلال، بل قاومت المحتل بكل ما أوتيت من قوّة، ووقفت أمام آلته القمعية الهمجية بكلِّ بسالة، ودفعت ثمنًا باهظًا في سبيل ذلك، وكانت كلَّما خبت فيها جذوة المقاومة قامت ثورة أخرى، وبالرغم من التفوُّق الماديِّ الواضحِ للمحتلّ الغربي

وانتصاره في النهاية، إلا أنَّ الشُّعوب أرَّقت المحتلّ وجعلت مُقامه باهظًا وغير مستقر.

كما قامت تحرُّكات علميةٌ في شتى المجالات، مما أسهم في إحداث تغييرٍ في المجتمع، ورفع مستواه الفكري والثقافي، فلم تعد السيطرة عليه ممكنة كما كانت من قبل.

انضمَّ إلى ذلك عوامل خارجية أسهمت في جعل الاستمرار بالاحتلال أمرًا غيرً ممكن، من ذلك:

١. الضعف الذي أصاب الدول الاستعمارية بسبب جريان سنة الكون عليهم بالضعف بعد القوة، وبسبب ما لاقته من مقاومة، وبسبب الحروب فيما بين المستعمرين.
٢. التنافس بين المحتلِّين، ومكائدُهم لبعضهم البعض، مما أجبرهم جميعًا على التسريع بالخروج من البلدان المحتلَّة بشكل منسَّق.
٣. الشعارات والمؤسسات التي أنشأتها البلدان المحتلَّة، وما ترفعه من شعارات الحرية والعدالة والمساواة، والتي تتناقض مع ما تفعله على الأرض، مما جعل مواقفها متناقضةً مع شعاراتها، وأجبرها على الالتزام -ظاهريًا- ببعض ما تنادي به وامتصاصًا لأي حركة معارضةٍ أو ثورةٍ جديدةٍ في البلدان المحتلَّة.

## استقلال بطعم الاحتلال:

لما أدرك المحتلُّ استحالةَ بقائِهِ في البلدان المحتلَّة، عَمِد إلى الانحناء للعاصفة، وأظهَرَ رغبته في الانسحاب والخروج من البلاد، وعمل على اصطناع مؤسساتٍ عسكريةٍ وسياسيةٍ وثقافية، وولّى فيها بعض «النُخَب» المهيَّأة عبر مشوار طويلٍ من التعليمٍ والتلميع والتصدير، ثمَّ بدأ يُسلِّمُها مفاصلَ البلاد شيئًا فشيئًا ويعقد معها الاتفاقيات، فخرج بآلته العسكرية،

ووجوده العلنيِّ المباشر، وأصبحت البلاد في عُهدة وُكلائه، وصارت هذه النخب هي الحاكمة للبلاد والمتولِّية عليها، بينما هي ربيبة المحتلِّ وصناعته، تربطها به اتفاقياتٌ معلنةٌ وأخرى غيرُ معلنة ترهَن مصيرها بالبلد المحتل، وتجعل التحكُّم فيها بيده.

فأكمل أولئك «الربيبة» ما عجز المحتلُّ عن عمله في رهن مستقبل البلاد ومؤسَّساتها بالدُّول المحتلَّة وربطها به، وإنزال أقسى قوانين القمع وسلب الحريَّات والإرادة والإفقار والتخلُّف، لضمان تطويع البلدان لحُكمهم ورهنها لإرادة المحتلِّ ورغباته، وتغريب المجتمعات وإبعادها عن دينها ولُغتها وثقافتها وهويتها، ومحاربة الوطنيين والصادقين، لتبقى تابعةً ذليلةً سهلة الانقياد، فبقيت غالب تلك البلاد تدار بما يرضي المحتل ويحقِّقُ رغباته لكن بـ «أيد وطنية»!

> **تقاسمت الدول الكبرى دول العالم، وجُعلت كل منطقة تحت نفوذ إحداها، تتحكَّم بها دون نكيرٍ من القوى الأخرى، وأنشئت سلطات محلِّية تابعة في كل منها، تحقِّق مصالحها، وأحيطت بما يخدمها من أدواتٍ وأجهزة**

## تركة تضمن التبعية:

لعل من أبشع ما قام به الاحتلال قبل انسحابه هو ضمان نفوذه للمستقبل، وذلك من خلال عدَّة أدوات:

- **الأداة الأولى - النظام السياسي:** حيث تقاسمت الدول الكبرى بقية العالم، وجعلت كل منطقة تحت نفوذ إحداها، تتدخَّل فيها وتتحكَّم بها دون نكير من القوى الأخرى، وأنشئت سلطات محلية عميلة في كل منها، تحقق لها

مصالحها، وتمنع الاستقلال عنها، وأحيطت بما يخدمها من أدوات وأجهزة.

- **الأداة الثانية – القوى الأمنية والعسكرية:** حيث أُسِّس في كل دولة من الدول المستعمَرَة جيشٌ عسكري وأجهزة أمنية متعدِّدة، وغذيت بعقيدة فكرية معينة، مهمتها حماية النظم السياسية ضد أي تغيير محتمل أو أي قوى معارضة.
- **الأداة الثالثة- الهيئات الدينية الرسمية:** كلُّ دولةٍ من الدول الإسلامية لديها مؤسسةٌ دينيةٌ تُبارك القيادة السياسية وتصرُّفاتها «الحكيمة»، وتحتكر الموقف العقدي والدعوي، وتُقصي المخالفين بقوة السلطان.
- **الأداة الرابعة - المؤسسات الثقافية والتعليمية والإعلامية:** فالتعليم ومناهجه مبنية بطريقة تدجينية تكرِّس الواقع القائم، وتزور التاريخ بما يفصل القُطر عن تاريخه ومُحيطه الجغرافي، والخطاب الإعلامي يضيف إلى هذا وذاك تشويه الأخلاق بإثارة الغرائز وإفساد الأفكار بإثارة الشبهات.
- **الأداة الخامسة - النظام الاقتصادي:** في كل دولة من الدول زرع بنكٌ مركزي يتحكَّم في عملتها ونظامها المالي، ولا يخضع لسيادة الدولة، بل يتبع للدول الغربية التي أسسته وقد تملك جزءًا كبيرًا منه.

وهي في مجموعها ترجع إلى جذرين اثنين، وهما: الهيمنة السياسية المدعومة من الأداة العسكرية والأداة الاقتصادية، والهيمنة الفكرية التي تُغذِّيها الأداة الثقافية والتعليمية والإعلامية إلى جانب الأداة الدينية.

> التحرُّر الشامل يبدأ من التخلُّص من الهيمنة الفكرية، وبذلك تكتسب الجماهير القوة الدافعة للتحرُّر، وهو يتطلب بعثًا لروح الحرِّية والأنَفَة من الاستعباد في الشعوب المستعمَرة، ويقتضي القضاء على داء القابلية للاستعمار في النفوس

## التحرُّر الحقيقي من الاحتلال:

يتطلَّب التحرُّر من الهيمنة الغربية المتجذِّرة في بلادنا العمل على التخلُّص من جذرَي الهيمنة السياسية والهيمنة الفكرية، وطريق التحرر من الهيمنة السياسية سارت فيه الشعوب العربية وبعض الشعوب الإسلامية عبر عدَّة أنواع من الثورات، والحرب فيها سجال. أما طريق التحرُّر من الهيمنة الفكرية فهو الأصل، وهو ما يشكِّل القوة الدافعة للجماهير للتحرُّر الشامل.

والتحرُّر الفكري يتطلَّب بعثًا لروح الحرية والأنَفَة من الاستعباد في الشعوب المستعمَرة، ويقتضي القضاء على ما سماه مالك بن نبي «داء القابلية للاستعمار»، مما يتطلَّب تغييرًا في الذات وإصلاحها، والثورة على القوالب الموروثة التي تبعث على الركود لا التجديد، وهذا يتطلَّب نمطًا فكريًا وسلوكيًا عصريًا، لكنَّه يستنير بأصالة الوحي وأهداف العقيدة، ويحتاج جيلاً جديدًا مغايرًا في تفكيره لسابقه، حاملاً في جعبته العلاجات المناسبة لأدواء العصر وقضاياه ومشكلاته.

ولأجل التحرُّر من عقدة القابلية للاستعمار وجناياتها لا بدَّ من عددٍ من المشروعات الإصلاحية الكبرى في مختلف التخصُّصات الإنسانية (النفسية والاجتماعية والتربوية

والشرعية والأدبية)، وهذه المشروعات بحاجةٍ لتحقيق أمرين رئيسين:

## ١- الدراسة الإنسانية للوحيين:

وذلك بالتعمُّق في الاستفادة من الوحيين (الكتاب والسنة) في فهم الإنسان وطبيعته، وقوانينه وأنظمته الاجتماعية، ودوره الرساليِّ في الخليقة، ومُراد الله من خلقه، والتعرُّف على سبيل الإصلاح الشاقِّ الذي سار عليه النبي ﷺ والأنبياءُ من قبله، والعزَّةِ التي أحدثها الإسلام في نفوس الصحابة، والكلياتِ الكبرى التي جاء بها الإسلام للبشرية كالعدالة والرحمة ومكارم الأخلاق وتحرير العقول من الأوهام والخرافات، بخلاف الحضارة المعاصرة التي كرَّست التمييز العنصري بين البشر، واستعبادَهم وظلمَ بعضهم لبعض، وتطبيعَ أشكال الانحرافات التي تترفَّع عنها البهائم؛ من الإباحيةِ المطلقة والشُّذوذ والتحوُّلِ من جنسٍ لآخَر وتأجيرِ الأرحام، وغيرها.

> **لا بدَّ أن يعرف الشباب التحولاتِ الكبرى التي حصلت قبل وبعد بعثة النبي ﷺ، والعدالة والقيم التي بثَّها الفاتحون المسلمون، وكيف آل أمرهم إلى الضعف بعد التفرُّق والتخلّي عن دورهم الدعوي والحضاري، وكيف سيطر الأعداء على مقاليد القوة في العصر الحديث**

## ٢- الوعي بالماضي والحاضر:

وذلك يشمل دراسةَ التاريخ وما حصل فيه من تحوُّلاتٍ كبرى قبل بعثة النبي ﷺ، وبعد بعثته، مرورًا بالفتوحات وما رافقها من مُمارساتٍ قِيميّة لم يعرفها التاريخ قبل الفاتحين ولا

بعدَهم، وانتهاءً بما أحدثته الفُرقة بين المسلمين، وتخلِّيهم عن دورهم الدعوي والحضاري في العالَم، ويشملُ دراسةَ التاريخ الحديث وكيف سيطر الأعداء على مقاليد القوة، ووضعوا القيودَ تلو القيودِ لمنع نهوض المسلمين من جديد، بما في ذلك المؤامرات التي يحيكونها في الخفاء والعلن.

وتحقيق هذين الأمرين ممكن، والقيود لا تمنعه في جميع الأصعدة، بل ثمة مساحات كبيرة لتطبيقهما في التعليم القرآنيِّ المسجدي والتربية المنزلية والدعوة الشبكية والجهود الفردية والجماعية وغيرها، كما تحرَّرت مناطقُ كثيرة من الهيمنة المباشرة لذيول الاستعمار، وفيها يمكن عمل الكثير من التوعية والتربية والتحرير لعقل الإنسان وفكره، لينطلق بعدها إلى التحرر في المجالات المادية الأخرى.

قضايا معاصرة

# العلم التجريبي بين التأليه والإسقاط

د. وائل الشيخ أمين
مؤسس ومدير أكاديمية عين



الفهرس

**نسمع بين الفينة والأخرى عبارات من قبيل (العلم لا يعجزه شيء) و(عصر سيطرة العلم)، وفي المقابل هناك فئات من الناس تنظر للمجتمع العلمي بعدائية شديدة ويربطونه بالمؤامرات الساعية للسيطرة على البشر والقضاء عليهم، وبين هذه الثنائية المتناقضة ثمة أدوات للتعامل مع المعلومات تمحيصًا وتدقيقًا، وهذه الأدوات تمنحنا الواقعية والاعتدال الذي نحتاجه لاستيعاب الأمور والعيش ضمن مساحة التوازن الضرورية للإنتاج ومواصلة الحياة**

## مدخل:

نعيش اليوم في عصرٍ مختلِفٍ عن جميع العصور السابقة لشدَّة التغييرات الحاصلَة فيه، وإنك لو أردت أن تحدد السبب الرئيسي لمعظم هذه التغييرات لوجدته التقدُّم العلمي، فالعلم هو الذي جعل البشر اليوم يعيشون في رفاهية غير مسبوقة، وهو الذي جعل المسافات تتقارب حتى إنك تستطيع التواصل بالصوت والصورة مع شخص في الطرف الآخر من الكرة الأرضية، وهو الذي أوجد علاجات لأمراضٍ كان مستعصيةً فزاد من معدَّل عمر الإنسان وقلل من انتشار الوباءات، وهو الذي طوَّر أسلحةً فتكت بعشرات الملايين من البشر، ولديها القدرة على تدمير الأرض مراتٍ ومرات، ولو أردنا أن نسترسل في التغييرات الهائلة التي أحدثها العلمُ في عصرنا لما اتَّسع المقام.

كما أنَّ العلم أحدث تغييرًا عظيمًا في وعي الإنسان وفهمه للوجود من حوله؛ وذلك بتفسيره للعديد من الظواهر الطبيعية كالأمطار والخسوف والكسوف والزلازل والبراكين، وبقُدرته على التنبُّؤ بها للاستفادة منها أو تقليل آثارها المدمرة.

هذا الحضور الكبير للعلم جعله جزءًا أساسيًا من فكر الناس وثقافتهم، فصِرتَ تسمعُ وتقرأ كثيرًا إذا أراد أحدهم أن يثبت

فكرةً ما قال: أثبتت الدراسات العلمية كذا وكذا، ولو أراد أن ينقض فكرة ربما قال: هذه الفكرة ليس عليها أي دليلٍ علمي.

وتضخَّم الأمرُ أكثر عند البعض فجعل العلم إلهًا! وجعل العلماء أنبياءه وجعل نظرياتهم نصوصًا مقدسة! فصرت تسمع مقولات مثل: (أنا أؤمن بالعلم فقط) تتردد كثيرًا اليوم، وصار هؤلاء يقولون: أي أمر ليس عليه دليل علمي هو محض خرافة.

على الطرف الآخر راح فريق يصور العلماء عمومًا أو في تخصصات معينة – كالأطباء، أو علماء الاجتماع، أو الاقتصاد– على أنهم عصابة تتلاعب بالحقائق لتُزيِّف وعي الناس، وهذا الفريق لا يثقُ بما تقرّه المجامع العلمية؛ فكل ما يقولونه هو محضُ أجنداتٍ يُراد منها السيطرة على البشر؛ فالأرض مسطحة وليست كروية، وكورونا وهمٌ تم صنعه وتضخيمه.

من هنا تأتي أهمية هذا المقال، لتعالج هذه الإشكاليات وتجيب على أسئلة محورية حول المقصود بالعلم وحدوده، وما يتميز به العلم الحديث وكيفية التعامل معه، وما يحيط به من مصطلحات ومفاهيم ونظريات.

**أحدث العلم تغييرًا عظيمًا في وعي الإنسان وفهمه للوجود من حوله؛ وذلك بتفسيره للعديد من الظواهر الطبيعية كالأمطار والخسوف والكسوف والزلازل والبراكين، وبقُدرته على توقع موعد حدوثها، وهذا الحضور الكبير للعلم جعله جزءًا أساسيًا من فكر الناس وثقافتهم**

## ما المقصود بالعلم هنا؟

أعتقد أن السبب الرئيسي في سوء التعامل مع موضوع العلم يعود إلى إشكاليةٍ شائعة في فهم المصطلحات الرئيسية (العلم، المنهج العلمي، الفرضية، النظرية، الحقيقة العلمية) ولذلك لا بدَّ ابتداءً من تحريرٍ جيدٍ للمصطلحات قبل المضي في مناقشة القضايا المتعلقة بها.

## تعريف العلم:

لو عدنا إلى تراثنا الإسلامي لرأينا أنَّ تعريفَ أسلافنا للعلم يختلف اختلافًا كبيرًا عن الاستخدام الغربي الحديث لهذا المصطلح، وسأضع هنا تعريف الجويني رحمه الله: «العلم معرفة المعلوم على ما هو به»[١].

أي إنَّ العلم ببساطة هو: أن نَعرِف الأشياء على حقيقتها كما هي في الواقع.

أما اليوم فقد تم تضييق مدلول العلم كثيرًا، ليصبح محصورًا على مجال ضيق منه، وهو العلم التجريبي المادي (Science)[٢].

فكل شيء غير مادي لا تمكن ملاحظته أو إجراء التجارب عليه فهو خارج نطاق العلم، فالعلم -بالمصطلح الغربي- يشتغل فقط في عالم المادة أما ما سواها كالروح والملائكة والجنّ فكلُّ ذلك لا علاقة له بالعلم، وبالتالي.. فالعلوم الإنسانية والاجتماعية وعلوم الدين كالتفسير والحديث وغيرها ليست علومًا بهذا المفهوم.

(١) الورقات، للجويني، ص (٩).

(٢) العلم التجريبي الحديث: هو منظومة ممنهجة لدراسة ظواهر العالم المادي الذي نحيا فيه. حادي العقول، عمرو شريف ص (١٠٢).

وحُصِر مصطلح العلم ليطلق فقط على ما يمكن ملاحظته كالفلك والجيولوجيا، أو تجربته كالفيزياء والكيمياء، أو ما يتكون من الملاحظة والتجربة معًا كالطب والأحياء.

ومقالنا هذا حين يتحدَّث عن العِلم يقصد به العلم التجريبي المادي؛ وذلك على الرغم من عدم اتفاقنا مع هذا الحصر للمفهوم، إلا أننا سنُسايره لشيوعه حتى يكون القارئ واعيًا حين يصادفه في الثقافة المعاصرة وفي مقولات العلماء الغربيين المعاصرين.

## تعريف المنهج العلمي:

المنهج العلمي: هو أسلوب التفكير العلمي وطريقة سير العلماء في عملهم أو في بحوثهم[1]. ويقصد به الخطة التي يتبعها العلم في مسيرته التي يتعامل فيها مع الواقع من أجل ملاحظته ووصفه وتفسيره والاستفادة منه.

وقبل أن أشرع بتفسير أهم المصطلحات المتعلقات بالعلم دعني أضرب مثالاً تقديميًا للمسألة:

(تخيلٍ أنَّ جريمة قتلٍ قد حصلت في منزلٍ ما، ذهب مجموعةٌ من المحقِّقين ليقوموا بفحص مسرح الجريمة ويسجلوا ملاحظاتهم، فوجدوا ما يلي:

الشاب المقتول تم نحرهُ من عنقه بأداةٍ حادةٍ، زجاج النافذة مكسور، توجد على الأرض بعض البقايا من قفازات طبية ممزَّقة. فقام المحققون بتدوين الملاحظات، وأخذوا آثار البصمات ليفحصوها في المختبر).

هكذا يبدأ العلم بالرصد وتدوين الملاحظات، كأن يُلاحَظ مثلاً أنَّ الأمطار تأتي من الغيوم، وضوء النهار يأتي من الشمس، وأنَّ ماء البحر مالح، وأنَّ الأجسام تميلُ للسقوط على الأرض وهكذا، وفي ميدان الملاحظة يستطيع العلم أن يجزم

(١) مفهوم المنهج العلمي، يمنى طريف الخولي ص (٤٣).

بصحة ملاحظاته فما يقوله العلم هنا لا شكَّ فيه، وكلَّما تقدَّم العلم صارت لديه قدرةٌ أكبر على الرصد؛ فاختراع المجهر مثلاً مكّن الإنسان من رصد عوالم كانت خفيةً عنه لصغرها فتم رصد الخلايا وما فيها والذرات وما دونها، وكذلك التيليسكوب (المنظار) مكّنه من رصد أجرام كانت خفيةً عنه لبُعدها فتم رصد كواكبَ ونجومٍ ومجرات.

لن يشكَّ المحقق في أنَّ زجاج النافذة مكسور، وأنَّ الغرفةَ فيها بُقعةٌ كبيرةٌ من الدماء، والتقنية الحديثة ستعطيه شكل البصمات التي رصدها في مسرح الجريمة.

دعنا نسير في مثال علمي مع سيرنا في مثال المحققين الذين يريدون معرفة المجرم.

المثال العلمي الذي اخترته هو الجاذبية الأرضية، والملاحظة التي يرصدها العلماء هنا هي أننا لو تركنا جسمًا في الهواء فسوف يتَّجه إلى الأرض.

> **الفرضية العلمية هي تخمين يقوم به البعض لتفسير ظاهرة معينة، لكنها لا تتضمَّن أيَّ دليلٍ على صحَّتها. ولذلك فإنَّ الفرضيات هي مجرَّد تخيُّلات للتفسير أو التحليل ما لم تتحوَّل إلى نظرية، وتحولها إلى نظرية يكون بذكر الأدلَّة التي يمكن التثبت منها، وكلما تبيَّنت صحةُ هذه الأدلة كانت النظرية أقوى**

## تعريف الفرضية:

دعنا الآن ننتقل لتحرير مصطلح جديد هو الفرضية، ما هو المقصود بها؟

(لو أنَّ أحد المحققين قال: أعتقد أن الذي قام بالجريمة هو جار المقتول، فسأله المحققون: لماذا تقول ذلك؟ فأجاب: هذا ما شعرت به عندما رآنا ونحن داخلون إلى منزل الضحية، فسأله المحققون: كيف يمكننا أن نتثبت من فرضيتك هذه؟ فقال: لا أعلم!).

فالفرضية العلمية هي: مجرَّدُ تخمين واحتمال أو فكرة مجردة، أو تفسير حدسي لظاهرةٍ ما[١]. وبالتالي فهي تخيُّل يقوم به البعض لتفسير ظاهرة معينة، لكنها لا تتضمَّن أيَّ دليلٍ على صحَّتها.

كأن يقول أحدهم: أعتقدُ أن سبب الجاذبية الأرضية هو وجود مغناطيس من نوع خاص موجود في داخل الأرض، يستطيع هذا المغناطيس أن يجذب جميع المواد إليه، لكن كما ترى لا يمكن التثبُّت من مثل هذه الفرضية.

كذلك من الأمثلة الشهيرة اليوم على الفرضية العلمية فرضية الأكوان المتعددة التي تقول إنَّ كونَنا هذا هو واحد من عدد لا نهائي من الأكوان، وبسبب هذه العدد اللانهائي منها فقد جاء كوننا بالصدفة بهذا الشكل المتقن الذي يسمح بوجود الحياة فيه، وهذه الفرضية ليس عليها أي دليل، بل لا يمكن أن يُتصوَّر أيُّ دليلٍ علمي عليها لأنَّها تصفُ أمورًا قد جرت خارج الكون!

ولذلك فإنَّ الفرضيات هي مجرد تخيلات للتفسير أو التحليل، ما لم تتحوَّل إلى نظرية، وتحوُّلُها إلى نظرية يكون بذكر الأدلَّة التي يمكن التثبت منها، وكلما تبيَّنت صحةُ هذه الأدلة كانت النظرية أقوى.

(١) العلم ليس إلهاً، محمد أمين خلال، ص (٤٤).

## النظرية العلمية:

لنعد لمثال المحققين في مسرح الجريمة:

(قال أحد المحققين: أعتقد أن الدكتور فلان هو القاتل، لأن الجريمة تمت بأداة حادةٍ جدًا كما يظهر من الجرح، فيبدو أنه قام بجريمته بمشرطه الطبي، كذلك بقايا القفازات الطبية تدعم نظريتي، وحجم الكسر في زجاج النافذة مناسب لحجم جسمه لذلك أعتقد أنه دخل منها).

هذه هي النظرية العلمية، محاولةٌ لتفسير ظاهرةٍ ما تمَّ جمع الملاحظات حولها بحيث تكون قادرةً على تفسيرها، مع تقديم الأدلَّة على صحتها[١].

ربما يوجِّه محقِّقٌ آخر الاتهامَ إلى شخصٍ آخر ويفسِّر الملاحظات التي تم جمعها بما يجعل اتهامه أرجح، هنا يحاول المحققون أن يقارنوا بين النظريتين ويحكموا أيهما أكثر منطقيةً.

في مثال الجاذبية الأرضية قدم إسحاق نيوتن نظريةً تُفسِّرها فقال: إنَّ الأجسام تميلُ لتنجذب إلى بعضها، وأنَّ قوةَ الجذب هذه تتناسب طردًا مع كتلة الجسم، فكلَّما كان الجسم أكبر كانت قوة الجذب أكبر،، ولذلك فالأرض تجذب كُلَّ ما عليها لأنها أكبر منه، وكذلك الشمس تجذب الأرض لأنها أكبرُ منها، ولأنَّ الأرضَ تدور بسُرعةٍ حول الشمس فهذا الدوران يشكِّل قوة طردٍ تجعل الأرض تبتعد عن الشمس، فقوَّة الجاذبية تشدُّ الأرض إلى الشمس والقوةُ الناتجةُ عن الدوران تدفعُها بعيدًا عنها، ولأنَّ هاتين القوتين متساويتان فإنَّ الأرض تدور في مدارها المحدَّد، فلا تلتحم بالشمس ولا تسبح بعيدةً عنها.

(١) النظرية العلمية: هي التفسير الأفضل للحقائق التي نشاهدها حولنا في الطبيعة والتي يجري الوصول إليها باستخدام الأساليب العلمية، والتي تختبر مراراً وتكراراً وتؤكد باستخدام الملاحظة والتجربة. (ويكيبيديا).

وقدَّم نيوتن أدلَّته لتُصبح نظريَّته هي الأقوى في عصره في تفسير الجاذبية الأرضية، بل صارت قوانين نيوتن تمثل عماد الفيزياء الكلاسيكية التي تفسر الحركة والجاذبية طيلة ٣ قرون حتى حلت محلها الفيزياء الحديثة مع ظهور النظرية النسبية لأينشتاين.

> **النظرية العلمية هي تفسير لظاهرة من الظواهر وفق أدلةٍ معينة، ولذلك فإنها تبقى محلَّ شكٍ، ولا يُمكن الجزم بصِحَّتها إلا بدليل، وهنا الفارق الكبير المُهم بين ما يستطيع العلم أن يجزم بصحته (الرصد) وما لا يستطيع أن يجزم به (النظرية)**

## كيف نتعامل مع النظريات العلمية؟

ما سبق يعني أنَّ النظريات العلمية تبقى دائمًا محلَّ شكٍ، ولا يُمكن أبدًا الجزم بصِحَّتها، فلا يُمكن أنْ نجزم أنَّ الطبيب هو المجرم نتيجة تفسير الملاحظات الموجودة في مسرح الجريمة، وهنا الفارق الكبير المُهم بين ما يستطيع العلم أن يجزم بصحته (الرصد) وما لا يستطيع أن يجزم به (النظرية).

فإنَّ المحققين لا يستطيعون أن يجزموا يقينًا أنَّ الطبيب هو المجرم إلا بدليل، مثل تصويره من كاميرات المراقبة وهو يرتكب الجريمة؛ أي عندما تنتقل المعرفة العلمية من النظرية إلى الرصد.

وبما أنَّ مجال النظريات العلمية هو تفسير الملاحظات المرصودة فلا يمكن أبدًا أن تتحول النظرية المجردة عن الأدلة إلى حقيقة مطلقة!

ووصفُ بعضهم لإحدى النظريات العلمية أنَّها نظرية صحيحة لا يعني أنَّها حقيقةٌ ثابتةٌ لا يأتيها الباطل ولا يعتَورُها الشكّ، بل المقصودُ بذلك أنَّ هذه النظرية تقدم أفضل تفسيرٍ للملاحظات التي رُصدت حتى الآن.

ولذلك فإنَّ انتقادَ بعضهم لنظريةٍ علميةٍ ما بقولهم: (لكنها ما زالت مجرد نظرية ولم تصبح بعد حقيقة)، هو جهلٌ بمعنى النظرية العلمية؛ فالنظرية العلمية لا يمكن أن تتحول إلى حقيقة، وتسميتها بالنظرية لا يعني أنها ضعيفة، بل العلماء دائمًا يتبنَّون النظرية التي تُقدِّم أفضل التفسيرات لظاهرةٍ ما.

**يسير العلم التجريبي في بحثه عن الحقيقة بصورة منهجيّةٍ مضبوطة، وكلَّما تقدَّم العلم زاد التفكير في الضوابط المنهجية التي تُعين على أن تكون النتائج التي يصل إليها العلم أكثر موثوقية**

## كيف يتعامل العلم مع الملاحظات الجديدة؟

العلم يتقدَّم من خلال إدمان الشك بالنظريات، فكما قلنا: إنَّ القدرة على الرصد تتزايد يومًا بعد يوم، أي أنَّ الملاحظات تزيد ولا تتوقَّف غالبًا، فكيف يتعامل العلم مع الملاحظات الجديدة؟

**لدينا هنا ثلاثة احتمالات:**

- الاحتمال الأول: أن تؤكِّد الملاحظات الجديدة صحَّة النظرية فعندها تقوى النظرية وتزداد ثقة العلماء بها، كأن يعثر الأطباء على تسجيل صوتيٍّ أرسله الطبيب للضحية قبل يومِ ارتكاب الجريمة يُهدِّدُه فيها بالقتل.

## مراحل المنهجية في البحث العلمي التجريبي

| | | |
|---|---|---|
| ١ | الرصد والملاحظة وجمع البيانات | اكتشاف |
| ٢ | وضع التفسيرات | فرضية |
| ٣ | تقديم الأدلة على هذه التفسيرات | نظرية |
| ٤ | اختبار الأدلة ثم تحكيمها | قبول النظرية علميًا |

- الاحتمال الثاني: أن تخالف الملاحظات الجديدة النظريةَ مخالفةً بسيطةً، عندها يقوم العلماء بمحاولة تفسير هذه الملاحظات وفق النظرية ذاتها، كأن يتبيَّن أنَّ البصمات التي عُثر عليها ليست بصماتِ الطبيب، عندها يمكن أن يقول المحقق: إنَّ الطبيب كان منتبهًا لإخفاء بصماته ولذلك قام بارتداء القفازات.
- الاحتمال الثالث: أن تخالف الملاحظات الجديدة النظرية مخالفة جذرية بحيث تعجز النظرية عن تفسيرها بأي حال، عندها يتم التخلي عن هذه النظرية والبحث عن نظرية بديلة، كأن يَثبُت أن الطبيب كان ساعة ارتكاب الجريمة يعمل في المستشفى والأدلّة تثبت ذلك، عندها يبدأ التفكير بمتَّهم آخر.

وهذا ما حصل مع نظرية نيوتن في تفسيره للجاذبية الأرضية فبعد أكثر من مائتي عام من الاعتقاد بصحة نظريته وعدم

العثور على ملاحظاتٍ تهدمُها، تم رصد بعض الملاحظات الفلكية المتعلقة بحركة كوكب عطارد عجزت نظرية نيوتن عن تفسيرها، فتم التخلي عنها لتحل محلها نظرية النسبية العامة لأينشتاين التي قدمت تفسيرًا أقوى لجميع الملاحظات المرصودة.

وهكذا نرى أنَّ سير العلم في بحثه عن الحقيقة منهجيٌّ مضبوط، وكلَّما تقدَّم العلم زاد التفكير في الضوابط المنهجية التي تعين على أن تكون النتائج التي يصل إليها العلم أكثر موثوقية.

**الأوساط العلمية لا تُسلِّم مباشرة بصحة الدراسات والأبحاث الصادرة عن جهة علمية معينة، بل تقوم بتكرار هذه الدراسات وفق ظروف مطابقةٍ تمامًا، ولذلك فالعلماء عندما يقومون بدراسةٍ علميةٍ ما يُسجِّلون أدقَّ تفاصيلها، حتى يستطيع غيرُهم أن يُكرِّرها ويتأكَّد من نتائجها**

## ضابط مهم في الدراسات العلمية:

هذا الضابط هو قابلية التكرار؛ فعندما تقوم جامعةٌ ما بدراسة علمية وتنشر نتائجها فإنَّ بقية الأوساط العلمية لا تسلّم مباشرة بصحة هذه الدراسة ونتائجها، بل تقوم بتكرار هذه الدراسة وفق نفس الظروف تمامًا، ولذلك فالعلماء عندما يقومون بدراسةٍ علميةٍ ما يُسجِّلون أدقَّ تفاصيلها، حتى يستطيع غيرُهم أن يُكرِّرها ويتأكَّد من نتائجها.

ولعلّي قد فصلت قليلاً في شرح بعض أهم المصطلحات العلمية وفي منهج العلم التجريبي (نسبة إلى حجم المقال)،

ولكن هذا ضروري قبل أن ننتقل إلى بقية المسائل فالحكم على الشيء فرع عن تصوره.

ويمكن تلخيص ما سبق في التالي:

- أن العلم المقصود به في هذا المقال هو العلم التجريبي.
- أن مراحل المنهجية في البحث العلمي التجريبي كما يأتي:
  ١. الرصد والملاحظة وجمع البيانات.
  ٢. وضع التفسيرات (فرضية).
  ٣. تقديم الأدلة على هذه التفسيرات (نظرية).
  ٤. اختبار الأدلة ثم تحكيمها (قبول النظرية علميًا).
- الفرق بين النظرية والحقيقة: أن كل واحدة تصف شيئًا ما، فالحقيقة تصف الأشياء والظواهر (الجاذبية مثلاً)، والنظرية تفسرها. وبالتالي لا يصح أن يقال: لا أؤمن بالنظرية حتى تصبح حقيقة علمية[١].

## قدرات العلم وحدوده:

ذكرنا أنَّ العلم التجريبي محدودٌ بالعالم الماديِّ فقط، أي: بما يمكن رصده من خلال حواسِّنا ومن خلال تقنيات الرصد كالميكروسكوب والتيليسكوب.

والعلمُ محدودٌ داخل العالم المادي بقدرة الإنسان على الرصد، فقبل التقنيات الحديثة كان العلم لا يستطيع رصد الكثير مما يرصده الآن، وهذا يخلق معضلةً كبيرة، فإذا لم تجمع كل الملاحظات المتعلِّقة بظاهرةٍ ما، فقدرتُك على الفهم والتفسير تبقى محدودة، ولذلك أيضًا لا تستطيع أن تجزم أبدًا

(١) الحقيقة العلمية: هي الأمر المرصود والمدعوم بالأدلة الدامغة، العلم ليس إلهاً، محمد أمين خلال، ص (٤٦).

أن استنتاجاتك العلمية صحيحة؛ لأنه قد تكون هنالك بعض الملاحظات التي تنقض نظريتك لكنك لم تستطع رصدها!

ولتوضيح ذلك سأذكر مثالاً شهيرًا يصف هذه المعضلة التي تقف في وجه العلم، فلو أن العلماء رصدوا مثلاً الملايين من طيور البجع، فرأوها جميعًا بيضاء اللون، عندها سيستنتجون أن كل البجع أبيض، لكن هل هذا الكلام دقيق!

إن عثورهم على بجعة سوداء واحدة كفيلٌ بأن يهدم هذا الاستنتاج، وهذا ما حدث فعلاً عندما احتل الهولنديون أستراليا وتفاجؤوا بأن رأوا للمرة الأولى بجعًا سودًا، بعدما كان يقطعون بأن كل البجع في العالم أبيض.

يبقى الإنسان محدودًا في رصده؛ فهو عاجزٌ عن أن يرصُد كل ما في الكون، وأكثر عجزًا عن أن يرصد ما كان فيه في الماضي، والعجز الأكبر طبعًا هو عن رصد ما سيكون في المستقبل.

وبما أنَّ العلم كُلَّه يقوم على الرصد، وقدرة الإنسان على الرصد محدودة، فهذا يعني أن إمكانيات العلم محدودة، وأن العلم لا يستطيع أن يصل إلى نظريات تجزم بكامل الحقائق.

> **يبقى الإنسان محدودًا عاجزًا عن أن يرصُد كل ما في الكون، وأكثر عجزًا عن أن يرصد ما كان فيه في الماضي، والعجز الأكبر طبعًا هو عن رصد ما سيكون في المستقبل، وهذه المحدودية تعني أن إمكانيات العلم محدودة، وأن العلم لا يستطيع أن يصل إلى نظريات تجزم بكامل الحقائق**

## ازدراء العلم، ونظرية المؤامرة:

نسمع في حياتنا اليومية الكثيرين يسخرون من العديد من النظريات العلمية ويسخِّفونها بأطروحات ساذجة، كأن ترى شابًا لم يقرأ كتابًا في الفيزياء أو الطب أو الفلك أو غيرها من العلوم، بمجرد سماعه لإشاعةٍ أو معلومة غير صحيحة، أو عدم فهمه لجزئية ما؛ يعترض على بعض النظريات العلمية فيها! بل ويناقش غيره ويتوهَّم أنه يكشف كذب أو جهل العلماء!

وهذه الظاهرةُ مؤلمةٌ جدًا ففي الوقت الذي يجب أن نتسابق فيه لنسبر أغوار العلم ونتزوَّد منه لنتقوَّى به ويكون لنا مكانةٌ بين الأمم، نرى هذا الجهل المركَّب عند بعض أبناء أمَّتنا، ومن يقع منه هذا فهو جاهل ويجهل أنه جاهل.

أشعر أحيانًا عندما أناقش بعض هؤلاء أنهم ينظرون بسخرية شديدة للعلماء، ومن ردودي عليهم:

هل يعقل أن علماء هذا التخصص لم تخطر ببالهم انتقاداتك هذه، وليست لديهم إجابات عليها؟!

هل يعقل أنك من خلال قراءتك لبضع مقالات ومشاهداتك لبعض المقاطع على اليوتيوب صرت تفهم في هذا التخصص أكثر من مئات آلاف العلماء الذين قضوا عشرات السنين في البحث والدراسة؟!

بحكم عملي كطبيب أسنان أشرح كثيرًا لمرضاي تشخيص حالاتهم وخطة العلاج، وأجيب على تساؤلاتهم، تصل أحيانًا الأسئلة إلى درجة عميقة فأقول لهم: يصعب جدًا أن أشرح لك هذه النقطة، لأنها شديدة التخصص.

هذا الأمر طبيعي فكلنا عوام في غير تخصصاتنا، فكيف يتجرأ البعض ليحتقر مجهودات العلماء المتراكمة على مر السنين؟!

بعض هؤلاء لا ينظرون إلى العلماء عمومًا أو في مجال معين على أنهم أغبياء، بل على أنهم عصابة متآمرة، يعرفون الحقيقة ويحجبونها!

لكن كيف للعلماء في بلدانٍ شتى ومشاربَ متعددةٍ أن يتَّفقوا على هذا الأمر، أيُعقل أن يتَّفق مئات الآلاف من العلماء على تزييف العلم، ثم يؤلفوا الكتب في هذا ويدرسوه لطلابهم في الجامعات، ولا يخرج بعض العلماء ليكشف هذه المؤامرة؟ ثم كيف يتآمر العلماء المنتمون إلى دول مختلفة، بل بعضها متصارع كأمريكا وروسيا والصين والهند وغيرها؟!

> **العديد من الناس يسخرون من النظريات العلمية ويسخِّفونها بأطروحات ساذجة، وهذه الظاهرةُ مؤلمةٌ جدًا ففي الوقت الذي يجب أن نتسابق فيه لنسبر أغوار العلم ونتزوَّد منه لنتقوَّى به ويكون لنا مكانةٌ بين الأمم، نرى هذا الجهل المركَّب عند بعض أبناء أمَّتنا، ومن يقع منه هذا فهو جاهل ويجهل أنه جاهل**

## الدراسات المضلِّلة:

هل هذا يعني أنه لا توجد دراسات علمية مضلِّلة؟!

ليس الأمر كذلك أيضًا، وقد ذكرت فيما سبق أحد ضوابط المنهج العلمي للدراسات العلمية وهو قابلية الدراسة للتكرار الذي يكشف عمليات التضليل التي قد يقوم بها بعض العلماء والباحثين.

فالعلماء بشر لديهم تحيُّزاتهم الفكرية، وميولهم النفسية، ومصالحُهم الشخصية ولذلك يمكن لمركز أبحاث أن ينشر

دراسةً علميةً مضلِّلة[1]، كما حصل عندما نشر أحد مراكز الأبحاث دراسة تقول إن التدخين لا يسبب سرطان الرئة، ثم تبين أن هذه الدراسة مضللة وأن هذا المركز مموّل من شركة التبغ الأمريكية! لكن لا يجوز تضخيم هذه الفضائح العلمية للدراسات المضلِّلة ليتم تصويرها على أنها هي الحالة العامة أو أنها منتشرة كثيرًا، بل الأمر على العكس من ذلك فهي حالات نادرة، كما أنَّ الذي كشف هذه الفضائح هو المجتمع العلمي ذاته، فالجامعة أو مركز الأبحاث الذي يثبت عليه أنه قام بدراسةٍ مُضلِّلة تنهار سمعته ويتكبَّد نتيجة ذلك خسائر فادحة، ويمكن أن يتعرض لعُقوباتٍ قانونية، والعالِم الذي يقوم بهذا تسقط مكانته العلمية ويدمِّر مستقبله.

كما أن العلماء لا يستقبلون مثل هذه الدراسات بالترحيب والقبول دون أن يتحقَّقوا منها، ومن موثوقية الجهة التي قامت بها، ومن المرات التي كُرِّرت فيها هذه الدراسة وأخرجت نفس النتائج.

باختصار أقول لمن يزدري العلم اليوم: العلم ليس خواطر مراهق قالها في لحظة عاطفية فصدقها أصدقاؤه، ولا هو رسائل سياسية ألّفها ديكتاتور وفرضها على شعبه.

بل العلم يقوم على منهج رصين وبضوابط محكمة، ويتعرض لمراجعات مستمرة من العلماء الأقران، ويبقي رقبته دائمًا تحت مقصلة الشك، ولهذا فقط يتحقق هذا التطور الهائل حينًا بعد حين.

(١) توجد أمثلة كثيرة لهذا التحيز، خصوصًا في مجال البيئة والمنتجات الغذائية والأدوية، ينظر تقرير «تجارة الوباء» الذي بثته قناة الجزيرة.

> **حصر مصادر المعرفة في العلم التجريبي القابل للقياس انحراف عظيم يؤدي إلى الضلال والزيغ، لأنه منهج يعتمد على إنكار مصادر مهمة مثل الخبر والفطرة، وهذا يجعله مغالطًا متناقضًا، وتطبيقاته خطيرة على البشر**

## العلمَوية ومشكلاتها:

على الطرف الآخر من الفريق السابق نرى من بالغ في ثقته في العلم، ورفعه فوق مكانته، جاعلاً منه المصدر المعرفي الوحيد، وهذا ما يعرف بالعلموية.

فالعلموية مذهبٌ فلسفيٌّ يقول بأنَّ المعرفة الإنسانية لا سبيل لها إلا العلم التجريبي، وأن كل فكرةٍ لا يمكن إثباتها علميًا هي خرافة.

وهذه المقولة متهافتة كما لا يمكن إثباتها بالعلم التجريبي، ولذلك فهي تحكم على نفسها –بمنطقها– أنها خرافة!

وهذا المذهب تم نقده منذ بداية نشأته على يد فلاسفة كبار يأتي على رأسهم كارل بوبر.

ومن مشاكل العلموية أنها تفترض فرضيةً مسبقة وهي أنَّ الوجود كُلَّه ماديٌّ فقط، ولذلك فهم ينكرون الملائكة والجن والأرواح ويقولون إن كل هذا خرافات.

والمغالطة المنطقية التي يقع بها هؤلاء العلمويون يمكن تشبيهها برجلٍ لديه جهاز للكشف عن المعادن في باطن الأرض، أخذ هذا الرجلً جهازه وقام بفحص قرية من خلاله، ثم بعد أن أنهى عملية بحثه قال: «إن هذا البلد لا يوجد فيه بلاستيك!».

لكنه لم يبحث إلا في قرية واحدةٍ فقط، فكيف يعمّم على البلد، كما أنَّ جهازه لا يستطيع الكشف عن البلاستيك بل عن المعادن فقط!

كذلك يفعل العلمويون، بعد رصد وملاحظة جزءٍ صغير جدًا من هذا الكون، يقولون: لا وجودَ فيه إلا للأمور المادية.

ومن مشاكل العلموية إهمالُها مصدرًا عظيمًا من مصادر المعرفة لا ينتمي إلى العلم التجريبي وهو مصدر الخبر.

فأكثر معارف الإنسان مصدرها ليس العلم بل الخبر، فأنت تعلم أنه يوجد بلدٌ في العالم اسمه الصين لأنَّ العديد من الناس أخبروك بذلك ويستحيل أن يجتمع هؤلاء الناس على الكذب.

بل العلم ذاته ينتشر عن طريق الخبر! فأنت تعرف أنَّ نظريةً ما صحيحةٌ لأنَّ العلماء قد أخبروك بذلك، ولم تختبرها علميًا بنفسك، ولكنك تعتقد أن هؤلاء العلماء لا يمكن أن يتَّفقوا على الكذب على العلم.

وتزداد ثقتنا بالخبر كلَّما تأكدنا من صدق المخبِر، ولذلك فإن الصحابة صدقوا بما جاء به النبي ﷺ لثقتهم بصدقه في المقام الأول، كما تزداد الثقة بالخبر عندما يأتي من جمع كبير من الناس يستحيل اجتماعهم على الكذب، ولذلك فنحن نصدق بأن القرآن الذي بين أيدينا هو ذاته الكتاب الذي أنزل على نبينا ﷺ لأنه قد تناقلته جموع عن جموع يستحيل أن يجتمعوا على الكذب.

والعلموية تنكر مصدرًا معرفيًا آخر وهو الفطرة الإنسانية، وإنكار الفطرة يقضي على العلم أصلاً، فمن المعارف الفطرية أن لكل حادث سببًا وهو ما يعرف بقانون السببية.

هذا القانون لا يمكن إثباته علميًا، بل هو من الفطرة، والتناقض الذي يقع فيه العلمويون هو أن العلم يقوم بالأساس

على قانون السببية عندما يحاول تفسير الظواهر والحوادث، أي أننا نستطيع أن نقول بثقة أن العلم نفسه ليس علمويًا!

ولذلك فإن العلموي عندما ينكر المعارف الفطرية فإنه يقطع غصن الشجرة الذي يجلس عليه!

والكارثة في إنكار الفطرة كمصدر معرفي هو انهيار الأخلاق، فالإنسان يعتقد أن الصدق فضيلة، وأن القتل جريمة بدون أي دليل علمي أو عقلي بل يعرف ذلك بفطرته.

ولذلك نرى اليوم سيولةً أخلاقيةً مُريعةً وصلت إلى حدِّ اعتبار الشُّذوذ الجنسي أمرًا طبيعيًا، بل وصل الأمر إلى أن يجرّم من يُنكر الشذوذ!

**من مشكلات العلموية أنها تنكر مصدرًا معرفيًا مهمًا وهو الفطرة الإنسانية، وإنكار الفطرة يقضي على العلم، لأنه ثمة معارف فطرية لا يمكن إثباتها لبدهيتها، ولكونها أداة من أدوات إثبات المعارف**

## خاتمة:

حاولتُ في هذا المقال تشكيلَ صورةٍ شُمولية للعلم بالعلم، أي دراسة العلم من خارجه لمعرفته ما هو؟ وما منهجه؟ وما حدوده؟ وما درجة الثقة بمنتجاته؟

وأحبُّ أن أختم بتأكيدي على أنَّ المنهج العلمي التجريبي هو أحدُ أعظم إنتاجات العقل البشري، ولذلك علينا أن ننظر إليه نظرةً متوازنة:

- بعيدة عن ازدراء العلماء، وعن نظرية المؤامرة، لأنها ستحرمنا من الاستفادة من منتجات العلم والتقدم بالبناء عليه مما يجعلنا متخلفين عن ركب الحضارة.
- لا نغلو فيه فنجعله إلهًا لا تؤخذ الحقائق والمعارف إلا منه، لأن ذلك سيحرمنا من الاستفادة من مصادر المعرفة الأخرى المهمة وعلى رأسها الوحي والفطرة الإنسانية.
- لا ننظر إلى كل ما ينسب إليه نظرة واحدة، فما يتم رصده حقيقة لا شك فيها، والفرضية مجرد خيال لا يعتد به، والنظرية الصحيحة هي أفضل التفسيرات حسب المعطيات المتوفرة.
- لا نثق بكل الدراسات العلمية أيًا كان مصدرها، بل العلم يؤخذ من اتفاق الجامعات ومراكز الأبحاث بعد تكرار الدراسة والتأكد من صحتها.

# الحديث الضعيف.. كيف ظهر؟ ولماذا رواه المحدِّثون؟

أ. عبد الملك الصالح

إجازة في الشريعة من جامعة دمشق، ماجستير في الحديث وعلومه



الفهرس

**انتشرت الأحاديث الضعيفة في السنوات الأخيرة انتشارًا كبيرًا، ومما أسهم في هذا الانتشار وسائل التواصل الاجتماعي التي لا قيود على النشر فيها، مع قلة الاهتمام بالتحرِّي من قبل الناشرين، والمسارعة إلى قبول كل غريب من قبل المتلقِّين، وكأنه علمٌ جديدٌ وفائدةٌ عزيزةٌ. وهذه المقالة تلقي الضوء على عدد من الجوانب المتعلقة بالحديث الضعيف**

## مدخل:

مضى على الأمة زمان لم يعد الاهتمام بالحديث النبوي رواية واستدلالاً يحظى بتلك المكانة الكبيرة كما كان في العصور السالفة، حتى إذا عادت لها بوادر النهضة الدينية، وشهدت صحوة علمية في مجالات شتى على يد أهل العلم والدعاة، عاد الاهتمام بالحديث النبوي بين عامة الناس. لكن مع ضمور العلم التخصصي، وانتشار وسائل التواصل، ومع العاطفة الدينية وحب الخير ونشره؛ انتشرت الأحاديث الضعيفة إلى جانب الصحيحة حتى اعتادها الناس وظنُّوها صحيحة، خصوصًا أنَّها تنسب لدواوين السنة كالسنن والمسانيد والمعاجم.

وبعد أن يسَّر الله قيام الجهود المعاصرة والمشروعات العلمية التي خدمت السنة النبوية، ونبَّهت إلى ضعيفها، واهتمت بصحيحها، ظهرت تساؤلات واعتراضات ضمن الشبهات التي يواجهها الشباب المسلم ، تشكِّك في الأحاديث النبوية بالعموم، بدعاوى كثيرة منها وجود أحاديث ضعيفة في دواوين السنة، ومنها عدم إمكانية تمييزها من غيرها، ... إلى غير ذلك.

وفي هذه المقالة إضاءات للتعريف بالحديث الضعيف، وكيف نشأ، وسبب رواية أهل العلم له، وعوامل انتشاره قديمًا وحديثًا، لتجيب عن جانب مهم من تلك التساؤلات.

## ما هو الحديث الضعيف؟

الحديث الضعيف هو ما لم تجتمع فيه صفات الحديث المقبول.

قال ابن الصلاح: «كلُّ حديثٍ لم يجتمع فيه صفاتُ الحديثِ الصحيحِ، ولا صفاتُ الحديثِ الحَسَنِ... فهو حديثٌ ضعيفٌ»[(١)].

والحديث المقبول نوعان: صحيح وحسن.

والصحيح هو ما اجتمعت فيه شروط القبول الخمسة، وهي: اتصال السند، وعدالة الرواة، وضبطهم، وانتفاء الشذوذ، وانتفاء العلة القادحة.

والحسن هو ما جمع هذه الشروط إلا أنّ في رواته مَن كان خفيف الضبط.

فإذا فُقِدَ أحد هذه الشروط السابقة فالحديث ضعيف.

## ومن أمثلته:

- ما فقد شرط الاتصال: الحديث المرسل، والمنقطع، وما في سنده راوٍ مجهول.
- ما فقد شرط العدالة: الحديث الذي في سنده راوٍ متّهم بالكذب، أو الحديث الموضوع (المكذوب).
- ما فقد شرط الضبط: ما في سنده راوٍ سيِّء الحفظ، أو كثير النسيان، أو أصابه الخَرَف، أو كانً لا يُحدّث إلا من كتبه ثم ضاعت أو احترقت.
- ما فقد شرط السلامة من الشذوذ أو العلّة: وهو الحديث الشاذ الذي خالف فيه راويه غيره من الرواة، أو فيه علّة قادحة تمنع من قبوله.

(*) إجازة في الشريعة من جامعة دمشق، ماجستير في الحديث وعلومه.
(١) معرفة أنواع علوم الحديث، لابن الصلاح (٤١).

> الحكم على الحديث بالضعف لأنَّه فقد شرطًا أو أكثر من شروط القَبول.. لا يعني أنَّ الحديث كذبٌ في حقيقة الأمر، ولا يعني أنَّه مطروحٌ بالمرّة، بل يعني أولَ ما يعني أنَّ الحديثَ الضعيفَ مُتوقفٌ فيه لعدم توافر صفات القَبول فيه

## دلالة ضعف الحديث:

بناءً على ما سبق فإن الحكم على الحديث بالضعف لأنَّه فقد شرطًا أو أكثر من شروط القَبول لا يعني أن الحديث كذبٌ في حقيقة الأمر، ولا يعني أنه مطروحٌ بالمرّة، بل يعني أولَ ما يعني أن الحديثَ الضعيفَ مُتوقفٌ فيه لعدم توافر صفات القبول فيه. قال ابن الصلاح: «وكذلك إذا قالوا في حديث: «إنه غير صحيحٍ» فليس ذلك قطعًا بأنه كذب في نفس الأمر، إذ قد يكون صِدقًا في نفس الأمر، وإنما المراد به أنَّه لم يصح إسناده على الشرط المذكور، والله أعلم»[(١)].

وعليه فبعض أنواع الحديث الضعيف قد تتقوى فتصل إلى درجة الحسن أو الصحيح، وبعضها غير قابل للانجبار كالمضطرب والمنكر والشاذّ ورواية الكذاب.

فإذا كان الشرط المفقود هو الاتصال فقد ينجبر ويتقوّى بمجيئه من طرق أخرى تشهد أنّه متصل، أو تكشف أن الراوي المجهول أو الساقط من الإسناد ثقة أو مقبول، ونحو ذلك.

وإذا كان الشرط المفقود يتعلق بضبط الراوي: فقد ينجبر ويتقوّى بمجيئه من طرق أخرى تشهد أنّ راويه سيء الضبط قد أصاب في هذا الحديث ولم يخطئ فيه.

(١) معرفة أنواع علوم الحديث، ص (١٤).

والضابط في قابلية الحديث الضعيف للانجبار بمجيء الحديث من طرق أخرى يسمّيها علماء الحديث: (المتابعات والشواهد)؛ ما حرره ابن حجر فقال: «والتحرير أن يقال: إنه يرجع إلى الاحتمال في طرفي القبول والرد؛ فحيث يستوي الاحتمال فيهما فهو الذي يصلح لأن ينجبر، وحيث يقوى جانب الرد فهو الذي لا ينجبر»[١].

من جهة أخرى: قد يوجد ما يُلحِقُ الحديثَ الضعيفَ بالمقبولِ أو بالمردودِ:

قال ابن حجر: «إنما وَجبَ العملُ بالمقبول منها (أي الأحاديث) لأنها إما أن يوجد فيها أصلُ صفة القَبول وهو ثبوتُ صدق الناقل، أو أصلُ صفة الرد وهو ثبوتُ كذب الناقل، أو لا:

- فالأول: يغلب على الظن ثبوتُ صدقِ الخبر؛ لثبوت صدق ناقله؛ فيؤخذ به.
- والثاني: يغلب على الظن كَذبُ الخبر؛ لثبوت كذب ناقله؛ فيُطرَح.
- والثالث: إن وجدت قرينة تُلحِقه بأحد القسمين الْتَحَقَ، وإلا فيُتَوَقَّفُ فيه، وإذا تُوُقِّفَ عن العمل به صار كالمردود، لا لثبوت صفة الرد، بل لكونه لم توجد فيه صفة توجب القَبول، والله أعلم»[٢].

والكلام في الأحاديث الضعيفة في هذا المقال هو عن جزء من النوع الثالث، أعني الحديث الذي لم يوجد فيه أصل صفة القبول ولا أصل صفة الرد، ولا وجد فيه ما يلحقه بالمقبول ولا ما يلحقه بالمردود.

فيخرج بهذا:

(١) النكت على مقدمة ابن الصلاح، ص (٧٠).
(٢) نزهة النظر (٥١).

» الأحاديث الضعيفة في أصلها ووجد فيها ما يُلحقها بالمقبول (فهي مقبولة).

» والأحاديث الضعيفة في أصلها ووُجد فيها ما يلحقها بالمردود (فهي مردودة).

» والأحاديث الموضوعة[1].

وبناءً على ما سبق يقال: ليست كل الأحاديث الضعيفة بمرتبة واحدةٍ، بل لكل نوع منها رتبته التي تخصه، ومن الخطأ الحكم على الأحاديث الضعيفة كلها بحكم واحدٍ. وإن كانت كل الأحاديث الضعيفة بمراتبها المتعددة يجمعها حكم عام هو: عدمُ كونها حجةً شرعيةً بذاتها.

> **ليست كل الأحاديث الضعيفة بمرتبة واحدةٍ، بل لكل نوع منها رتبته التي تخصُّه، ومن الخطأ الحكم على الأحاديث الضعيفة كلِّها بحكم واحدٍ. وإن كانت كلُّ الأحاديث الضعيفة بمراتبها المتعددة يجمعها حكمٌ عام هو: عدمُ كونها حُجةً شرعيةً بذاتها**

## كيف ومتى نشأ الحديث الضعيف؟

في الحقيقة لا يوجد نقطة زمنية تشكل مبتدأ نشأة الحديث الضعيف، إلّا أننا يمكن أن نقول إن البداية كانت في عهد التابعين، حيث نشطت حركة الرواية، وبدأت سلسلة الإسناد تطول؛ ففي حين كان التابعي يروي الحديث عن الصحابي؛

(١) الحديث الموضوع هو المكذوب على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مردود ولا اعتبار له، وتسميته حديثًا ليست تسمية مطابقة، بل قد يسمى حديثًا «نَظرًا إلى زَعم واضعه، ولتُعرَف طرقُه التي يُتوصل بها لمعرفته ليُنفَى عن القَبول»، ينظر: فتح الباقي، لزكريا الأنصاري، ص (٢٨٥).

وُجِدَ تابعي يروي عن تابعي عن صحابي، وتابعي يروي عن تابعي عن تابعي (إلى سبعة من التابعين) عن صحابي.

ومع طول سلسلة الإسناد والتي قد يوجد فيها رجل عدل لكنّه سيء الحفظ؛ فيخطئ في نقل الحديث. أو يوجد بين الرواة راوٍ من أهل البدع التي بدأ ظهورها في هذا العصر، وهؤلاء ربمًا رووا ما يؤّيد بدعتهم أو كذبوا لتأييد بدعتهم؛ كل هذا جعل العلماء لا يقبلون الأحاديث إلا بعد السؤال عن الرواة وأحوالهم للتأكّد من عدالتهم وضبطهم، قال محمد بن سيرين رحمه الله: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم»[١].

هذا البحث في الإسناد أوجب فرز الأحاديث المقبولة عن غير المقبولة؛ الأمر الذي أدى إلى ظهور الحديث الضعيف.

## أسباب الحكم على الحديث بالضعف:

أسباب الحكم على الحديث بالضعف كثيرة، بعضها راجع إلى ما ذكر من نقص في ضبط أو عدالة الرواة، وبعضها راجع إلى عدم التزام الرواة بالضوابط التي اتفق عليها العلماء لقبول الحديث، أو تعمّد بعضهم إخفاء عيوب السند حتى يقبل الناس الأحاديث التي يرويها ويشتهر بينهم، وبعضها ناتج عن خطأ غير مقصود، من أمثلة هذه الأسباب ما يلي:

١. مجيء الحديث من رواية سيء الحفظ أو ضعيف الضبط، وتفرده به.

٢. مجيء الحديث من رواية مبتدع أو كذّاب.

٣. وَهَمُ الراوي وخطؤه (حتى وإن كان ثقةً) في نسبة كلام الصحابة أو غيرهم إلى رسول الله ﷺ، كأن يسمع كلامًا

(١) أخرجه مسلم في المقدمة، ص (١٥).

قاله أحد الصحابة أو التابعين فيظنّه من كلام الرسول ﷺ؛ فينسبه إليه. أو يسمع حديثًا عن النبي ﷺ مع شرحه فيظن الشرحَ من الحديث فيرويه كلّه على أنه من كلام النبي ﷺ.

٤. وَهَمُ الراوي في اسم شيخه أو من فوقه في الإسناد، أو قلب الإسناد، أو قلب المتن، ونحو ذلك من الأخطاء التي تجعل الثقة بهذه الرواية محل نظر، فيحكم بضعفها.

٥. تعمّد الراوي إخفاء أسماء الرواة الذين اشتهروا بالضعف من السند بتسميتهم بغير ما اشتهروا به من الأسماء أو الكنى! وهذا ما يسمّى التدليس، وهو من العيوب التي تقدح في الرواية وتجعلها غير مقبولة.

٦. رواية الراوي عمّن عاصره ولم يلقه بصيغة تحتمل السماع، وهذه الرواية في الحقيقة منقطعة، وتُسمّى الإرسال الخفي.

٧. وجود جهالة بالراوي المذكور في السند، بأن يُذكر في الإسناد راوٍ باسمه لكنه لا يعرف مَن هو، ولا تعرف عدالته ولا ضبطه.

**من أسباب رواية الحديث الضعيف: أن روايته تدخل ضمن مشروع جمع السنة وتدوينها، أو لأنّ فقهاء المسلمين استدلُّوا وعملوا به، أو لأنّه لا يوجد في الباب غيره، إضافة إلى أنّ هذا الضعيف قد يتقوّى بظهور طرق أخرى له، ولأجل تمييزه عن الصحيح**

## لماذا روى المحدثون الحديث الضعيف في كتبهم؟

قد يرد على ذهن القارئ سؤال: لماذا يروي المحدث حديثًا ضعيفًا ويثبته في كتابه؟ ألا يعلم أنه ضعيف؟

والجواب على هذا أن للعلماء أغراضًا متعددة في تصانيفهم، ومن المهم معرفة هذه الأغراض قبل الاعتراض على رواية هذه الأحاديث، ومن هذه الأغراض:

١. جمع السنة النبوية: فقد كان المحدّثون يثبتون في كتبهم ما يجدونه مرويًا في عصرهم من الأحاديث[(١)]، وروايتهم للأحاديث الضعيفة لا تعني أنهم كانوا يقبلونها ويعتبرونها حجَّة، بل يروونها لاحتمال أن يظهر لها طرقٌ أُخرى تقويها، أو يظهر لها شاهدٌ يقوِّيها، أو أن يظهر تفرُّد الراوي الضعيف بالحديث فلا يَقبَل التقوية. قال الحاكم: «ولعل قائلاً يقول: وما الغرض في تخريج ما لا يصح سنده ولا يُعَدّلُ رواتُه»؟ ثم قال في الجواب: «وللأئمة رضي الله عنهم في ذلك غرضٌ ظاهرٌ؛ وهو أن يعرفوا الحديث من أين مَخرجه، والمنفرد به عدل أو مجروح»[(٢)]. ومن أمثلة المصنفات التي تتبع هذه الطريقة: المسانيد عمومًا، كمسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) الذي جمع فيه أحاديث كل صحابي في مكان واحد بقطع النظر عن موضوعات هذه الأحاديث أو صحتها.

(١) قال الإمام مالك: أخبرنا يحيى بن سعيد، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن عمرو بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو سنته، أو حديث عمر، أو نحو هذا فاكتبه لي، فإني قد خفت دروس العلم، وذهاب العلماء. أخرجه مالك في الموطأ برواية محمد بن الحسن (٩٣٦)، وعلق البخاري في صحيحه (٩٩): «وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه؛ فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء».

(٢) المدخل إلى كتاب الإكليل، ص (٣١).

٢. تمييز الأحاديث الضعيفة: فيقصد المصنف بيان الأحاديث التي فيها علة تمنع من الحكم بصحتها. «ومن أشهر المصنفات التي هي مظنة الضعيف:

أ. الكتب التي صنفت في بيان الضعفاء: ككتاب الضعفاء لابن حبان، وكتاب ميزان الاعتدال للذهبي؛ فإن مؤلفيها يذكرون أمثلة للأحاديث التي صارت ضعيفة بسبب رواية أولئك الضعفاء لها.

ب. الكتب التي صنفت في أنواع من الضعيف خاصة: مثل كتب المراسيل والعلل والمُدرَج وغيرها. ككتاب المراسيل لأبي داود، وكتاب العلل للدارقطني»[١].

٣. جمع الأحاديث التي عمل بها الفقهاء: ولو كان بينها حديث ضعيف، وهذا كعمل أصحاب السنن الأربعة: ابن ماجه (٢٧٣هـ)، وأبي داوود (٢٧٥هـ)، والترمذي (٢٧٩هـ)، والنسائي (٣٠٣هـ)، وهم لم يشترطوا الصحة ولا الاستيعاب، وانفرد الترمذي من بينهم ببيان حكمه على الأحاديث التي رواها. وكسنن الدارقطني حيث كان يبين ما في الأحاديث التي يرويها من علل أو أوهام.

٤. ذكر الأحاديث التي لم يرد في الباب غيرها وإن كانت ضعيفة: قال أبو داود: «وإن من الأحاديث في كتابي «السنن» ما ليس بمتصلٍ، وهو مرسَلٌ ومدلَّسٌ، وهو إذا لم توجد الصحاح عند عامة أهل الحديث على معنى أنه متصل»[٢].

وثمة أغراض أخرى للمصنفين في الحديث، وتنوع هذه الأغراض يظهر لنا أنهم قصدوا جمع السنة النبوية أولاً، ثم جاء من أفرد الصحيح بالتصنيف وعلى رأسهم البخاري (٢٥٦هـ)

(١) تيسير مصطلح الحديث، للدكتور محمود الطحان، ص (٨١).
(٢) رسالة أبي داود إلى أهل مكة، ص (٣٠).

ومسلم (٢٦١هـ)؛ فقد اشترطا في كتابيهما الصحة، ولم يشترطا استيعاب كل الصحيح.

وقد كان عصرُ الرواية عصرَ علمٍ يسهل على طالب العلم فيه معرفة حال الرواية إسنادًا ومتنًا، لذلك قيل: «من أسند فقد أحالك»، أي أحالك على مصدر الخبر الذي رواه بإسناده لتدرس الإسناد وتعرف درجته.

> **كان عصرُ الرواية عصرَ علمٍ يسهُل على طالب العلم فيه معرفةُ حال الرواية إسنادًا ومتنًا، لذلك قيل: «من أسند فقد أحالك»، أي أحالك على مصدر الخبر الذي رواه بإسناده لتدرُس الإسنادَ وتَعرفَ درجته**

## عوامل انتشار الحديث الضعيف في العصور السابقة:

- الثقة بالرواة الناقلين للأحاديث: فالراوي الضعيف قد يكون عالمًا أو قاضيًا أو مفتيًا، لكن ضعفه جاء من جهة سوءِ حفظه أو ضياع كتبه، أو كبر سنه وشيخوخته، فعبدالله بن لهيعة مثلاً عالم الديار المصرية وقاضيها ومفتيها ومحدثها في زمانه، لكنه كان يُدلِّس عن الضعفاء فلم يقبل حديثه، ثم احترقت كُتبه قبل موته بسنوات فصار يحدث من حفظه فيخلط[١].
- غرابة كثير من الأحاديث الضعيفة: فإنَّ الراوي سيِّء الحفظ قد يروي حديثًا في ثواب عملٍ ولسوء حفظه يُخطئ في قدر الثواب فيُبالغ، فينتشر الحديث بين الناس لما فيه من أجر عظيم على عمل قليل. وكذا الأحاديث التي يرويها الضعيف

(١) تنظر ترجمته في تاريخ الإسلام، للذهبي (٦٦٨/٤) وما بعدها.

وفيها مبالغة في العقاب فينتشر الحديث بين الناس حذرًا مما فيه.

- تساهُل العلماء في رواية الأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال دون بيان ضعفها، فتدور هذه الأحاديث بين العامة الذين لا يُميِّزون بين الصحيح والضعيف. والعلماء إنما يتساهلون في رواية هذه الأحاديث لأنها لا تنشئ حكمًا شرعيًا ولا تُحلُّ حرامًا ولا تُحرِّم حلالاً، فيروونها للعبرة والاتِّعاظ بما فيها من ترغيب أو ترهيب، فتنتشر بين الناس وينسبونها للنبي ﷺ.

## عوامل انتشار الحديث الضعيف في العصور المتأخرة:

يضاف إلى الأسباب التي مرت:

- تيسُّر طباعة الكتب ونشرها أدى إلى انتشار العلم عمومًا، وأدى إلى انتشار الأحاديث عمومًا، ومنها الأحاديث الضعيفة.
- سهولة النشر في وسائل التواصل الاجتماعي وعدم الرقابة عليها، فيطير ما ينتشر فيها في الآفاق.
- قلة المتخصصين في العلم الشرعي عمومًا وفي علم الحديث خصوصًا، وهذا أدى إلى انتشار الأحاديث الضعيفة بين العامة وبين طلبة العلم أيضًا.
- تساهُل كثير من العلماء وطلبة العلم في الفتوى بالعمل بالحديث الضعيف عمومًا، دون مراعاة الضوابط التي وضعها القائلون بالعمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، ولا سيما في الأحاديث التي فيها ثواب كبير على عمل قليل كما مر معنا، فصارت هذه الأحاديث مقصِدًا للخطباء والوعاظ يبشرون الناس بها، فيكثر سماع الناس لها وتألفها نفوسهم وتنتشر بينهم انتشارًا واسعًا.

## عوامل انتشار الحديث الضعيف

| في العصور السابقة | في العصور المتأخرة |
| --- | --- |
| الثقة بالراوي الناقل للحديث بأن يكون عالمًا أو قاضيًا أو مفتيًا لكنه ضعيف الحفظ | تيسُّر طباعة الكتب ونشر العلم، ومنه الأحاديث الضعيفة |
| غرابة كثير من الأحاديث الضعيفة | سهولة النشر في وسائل التواصل الاجتماعي |
| تساهُل العلماء في رواية الأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال دون بيان ضعفها | قلة المتخصصين في العلم الشرعي عمومًا وفي علم الحديث خصوصًا |
| | تساهُل كثير من طلبة العلم في الفتوى بالعمل بالحديث الضعيف، دون مراعاة الضوابط |

والعلماء الذين أجازوا العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال وضعوا لذلك شروطًا، وهي:

١. أن يكون الضعف غير شديد، فيخرج بهذا الشرط الأحاديث شديدة الضعف والأحاديث المنكرة والموضوعة، فلا يجوز العمل بها باتفاق.

٢. أن يكون الضعيفُ مندرجًا تحت أصلٍ عام، فيخرج بهذا الشرط الحديث الذي يتضمن عملاً مخترعًا ليس له أصل معمول به.

٣. ألّا يعتقد عند العمل به ثبوته؛ لئلا ينسب إلى النبي ﷺ ما لم يثبت عنه، ولكن يعتقد الاحتياط.

٤. أن يكون موضوع الحديث الضعيف فضائل الأعمال، فيخرج بهذا الشرط الأحكام والعقائد، فلا يعمل بها

بالحديث الضعيف، ولا تثبت أي مسألة من مسائل العقائد بالحديث الضعيف[1].

وما يقوله العلماء المجيزون للعمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال ينبغي ألّا يتعدّى إلى دعوة الناس إليه وحثهم على العمل به في مختلف المناسبات، والمُشاهَدُ غيرُ ذلك للأسف، فكثيرًا ما تسمع الخطباء في المساجد والوعاظ في وسائل التواصل يحثون ويرشدون إلى عملٍ، ثم يستدلّون بحديث وهم ويعلمون أنه ضعيف، ويعقبون قولهم هذا بأنه وإن كان ضعيفًا إلا أن الضعيف يُعمل به في فضائل الأعمال! وهذا خطأ؛ لأن الحثَّ والدعوة لا يكونان إلا في أمر مطلوب شرعًا، والقائلون بالعمل بالحديث الضعيف في الفضائل لا يعتبرونه أمرًا مطلوبًا شرعًا، بل من الجائز المباح.

**إذا ذكر الفقهاء حكمًا شرعيًا وذكروا عنده حديثًا ضعيفًا، لا نُسارع إلى ردّ هذا الحكم لضعف هذا الحديث؛ فقد يكون للحكم مستندٌ آخر صحيح، من القرآن أو السنة أو من قواعد الشريعة، أو يكون حُكمًا مجمعًا عليه، فالتسرُّع في ردّ مثل هذا الحكم جرأةٌ غير محمودة**

## قد يكون متن الحديث الضعيف صحيح المعنى:

الحديث الذي حكم عليه النقاد بالضعف لعدم توافر صفات القبول فيه قد يكون متنه موافقًا لآية أو حديث آخر صحيح، فنحكم بضعفه سندًا، ولا نجزم عند ذكره بأنه من قول رسول الله ﷺ.

(١) ينظر: الحديث الضعيف وحكم الاحتجاج به، للدكتور عبد الكريم الخضير، ص (٢٧٥).

وينبني على هذا أننا إذا رأينا حكمًا شرعيًا ذكره الفقهاء وذكروا عنده حديثًا، ثم بحثنا عن حكم الحديث فوجدناه ضعيفًا: أننا لا نسارع إلى ردّ هذا الحكم لضعف هذا الحديث، فقد يكون للحكم مستندٌ آخر صحيح، إما من القرآن أو السنة أو من قواعد الشريعة، أو يكون حكمًا مجمعًا عليه وخفي علينا دليل الإجماع، فالتسرع في ردّ مثل هذا الحكم جرأة غير محمودة.

ومن أمثلة هذا حديث: (كل قرض جر منفعةً فهو ربًا)[1]، وهو حديث ضعيف جدًا من حيث السند، لكن المعنى الذي يتضمنه وهو أنّ من الربا اشتراط ردّ القرض مع زيادةٍ؛ حكمٌ مُجمعٌ عليه، قال ابن المنذر: «وأجمعوا على أن المُسْلِفَ إذا شَرَطَ عند السلفِ هديةً أو زيادةً فأسلفه على ذلك أن أَخْذَهُ الزيادةَ ربًا»[2].

**من مخاطر رواية الأحاديث الضعيفة: الشكُّ الناشئ عن الغرابة في كثيرٍ منها، والذي سينسحب إلى السنة عمومًا، كالأحاديث التي فيها مبالغةٌ في الترغيب أو الترهيب على أعمال صغيرة؛ ولو أنَّها عوملت بما يُناسب، وتعرَّف الناس على ضعفها لانحصر الاستغراب والشك فيها فقط، ولم ينسحب إلى السنة عمومًا**

(١) أخرجه الحارث (٤٣٧) من حديث علي مرفوعًا، وفي إسناده سوار بن مصعب: متروك. وأخرجه البيهقي (١٠٩٣٣) من قول فضالة بن عبيد الصحابي موقوفًا عليه.
(٢) الإجماع، لابن المنذر، ص (١٣٦) برقم (٥٧٠).

## خطورة انتشار الأحاديث الضعيفة:

مر معنا أن حكم النقاد بأن هذا الحديث ضعيف لا يعني أنه كذب في نفس الأمر، وأن المراد به: أنه لم يصح إسناده على الشرط المذكور في الحديث المقبول.

ولو أن الأحاديث الضعيفة عوملت بطريقة علمية صحيحة بحيث توضع في مقامها المناسب بحسب نوع الضعف ودرجته، فلا تهمل كلها إهمالاً تامًّا، ولا تقدم على مكانها الصحيح، لهان الأمر، لكن انتشار هذه الأحاديث الضعيفة انتشارًا واسعًا وقبول الناس لها وعملهم بها دون استحضار ما مر، ودون استحضار شروط العمل بالضعيف في فضائل الأعمال عند من يرى جوازه، ودون استحضار أنها ليست حجة شرعية؛ ينتج عنه أخطار لا بد من معرفتها لتجنبها.

**فمن هذه الأخطار:**

- مزاحمة هذه الأحاديث الضعيفة للأحاديث الصحيحة، وانتشارها على حساب انحسار الأحاديث الصحيحة من الحياة العملية للمسلمين، فالعمل بالحديث الضعيف يعني ترك العمل بحديث صحيح غالبًا، وإن كان الحديث الضعيف يتعلق بموضوع الحديث الصحيح.
- الشك الناشئ عن الغرابة في كثير من الأحاديث الضعيفة سينسحب إلى السنة النبوية عمومًا، فالأحاديث الضعيفة التي فيها ترغيب كبير على عمل قليل أو ترهيب كبير على ذنب صغير سينشئ في نفوس الناس شكًا في السنة عمومًا؛ لأن أكثر ما يطرق سمعهم هو هذه الأحاديث وفيها هذه الغرابة، ولو أنها عوملت بما يناسب وتعرف الناس على ضعفها؛ لانحصر الاستغراب والشك فيها فقط، ولم ينسحب إلى السنة عمومًا.

**لو مات الإنسان ولم يعمل بحديث ضعيف في فضائل الأعمال فلن يسأله الله عن عدم العمل به، ولن ينقص من دين الإنسان شيء بعدم العمل به، والسلامة لا يعدلها شيء**

## وختامًا:

ليس من شأن عموم الناس وعوامهم التفريق بين الحديث الضعيف الذي يعمل به في فضائل الأعمال والحديث الضعيف الذي لا يعمل به فيها، ومن هنا لا ينبغي للخطباء والوعاظ أن ينصحوا الناس بالعمل إلا بما صح من الحديث، وعليهم أن يعلموا أنهم مسؤولون أمام الله تعالى عن علمهم الذي علمهم الله.

ولو مات الإنسان ولم يعمل بحديث ضعيف في فضائل الأعمال فلن يسأله الله عن عدم العمل به، ولن ينقص من دين الإنسان شيء بعدم العمل به، والسلامة لا يعدلها شيء.

# منهج ابن تيمية في التعامل مع المخالفين

أ. فايز الصلاح

ماجستير في الشريعة، باحث متخصص في الدراسات الشرعية، عضو مجلس الإفتاء في المجلس الإسلامي السوري



الفهرس

**يُعتبر التعامل مع المخالف أحد معالم أهل السنة التي تميِّزهم عن غيرهم، وله قواعدُ وأصولٌ وتبعاتٌ ولوازم، فمن أخذ هذا المنهج بأصوله وتحمَّل تبعاته علا شأنه واقتُدي به، ويرجى له نيل رضى الله تعالى، وفي هذه المقالة عرض لمنهج علمٍ من أعلام أهل السنة في هذا الجانب**

## مدخل:

من سنن الله الكونية: الاختلاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

والاختلاف نوعان: نوعٌ محرمٌ مذمومٌ، وهو اختلاف التفرق الذي وقع به أهل الملل والفرق المنحرفة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

والنوع الآخر اختلاف سائغٌ، وهو اختلاف أهل الحق فيما يسوغ فيه الخلاف من الأمور العلمية والعملية، وأصحابُه مأجورون على كلّ حالٍ بأجرين أو بواحد.

وهذا الاختلاف السائغ قد ينقلبُ إلى اختلاف محرم إذا انقلب إلى تعصبٍ وولاءٍ وبراءٍ على الأقوال والأشخاص، بل يصبح في دائرة الجريمة الكبرى إذا تسلط أحد الأطراف على الآخر بتبديع وتكفير، ثم استعان على ذلك بالسلطان والعوام يحرضهم على الطرف الآخر بالسجن والضرب والشتم.

ولقد تميز علماؤنا -والحمد لله- بالمنهج القويم والطريق المستقيم، في التعامل مع الخلاف والمخالفين، ومن هؤلاء الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني، المعروف بابن

تيمية رحمه الله، الذي لم يستعمل العدل مع خصومه وحسب، بل جاوزه إلى الإحسان مع تعرضه للأذى الحسي والمعنوي.

> **العصر الذي عاش فيه ابن تيمية يشبه عصرنا من الناحية العلمية والسياسية؛ فقد تمايزت المذاهب الفقهية والعقدية وأصبح لها علماء ومنظِّرون وأتباع، ووقع التعصُّب والتقليد إلا ما ندر، بل تجاوز الأمر إلى التفرُّق والاختلاف، وهذا الواقع بحلوه ومُرِّه لنا فيه عبرة واقتداء**

## لماذا ابن تيمية؟

لقائلٍ أن يقول: لماذا وقع الاختيار في هذه المسألة على الإمام ابن تيميةً؟ والجواب:

- لأنَّه من عُلماء الأمة العامِلين ومن ورثة النبيِّين والمرسلين، وكما أُمرنا بالاقتداء بالأنبياء أُمرنا بالاقتداء بوَرَثتهم العلماء فيما اتَّبعوهم فيه.
- ثم لوجود الشبه الكبير بين عصرنا وعصره من الناحية العلمية والسياسية إلى حد ما، فلقد تمايزت المذاهب الفقهية والعقدية فأصبح لها علماؤها ومنظروها وأتباعها، ووقع التعصب والتقليد إلا من رحم الله، بل تجاوز الأمر إلى التفرق والاختلاف، وهذا الواقع بحلوه ومره لنا فيه عبرة واقتداء.
- التشابه بين عصرنا وعصره في الأحداث والوقائع.
- معرفة طريقة ابن تيمية في التعامل مع الخلاف والمخالفين تأصيلاً وتطبيقًا؛ مما يفيد الجافي عنه أن تتكشَّف له حقائقُ

ترفع عنه غشاوة الظلم والجهل، بحيث يَنظرُ إلى ابن تيمية بعدلٍ وإنصاف.

» وهذه المعرفة أيضًا تجعل المعجبين بابن تيمية والذين يتغنَّون بتأصيلاته أقربَ إلى التطبيق العملي في التعامل مع المخالفين، ويخرجون من دائرة «لم تقولون ما لا تفعلون» ولم لا تطبقون الذي تؤصِّلون.

## أي جناية جناها المخالفون؟

كي ندرك حقيقة تعامل الشيخ مع مخالفيه وإلى أيِّ مستوىً وصل معهم في إحسانه، فلا بدَّ من معرفة ما فعل معه المخالفون؟

إنَّ المسلم الخليّ عن هذه الصراعات لو اطَّلع على مثل هذه المنازعات والتصرُّفات، لَيَعجب أشدَّ العجب كيف يسعى من يحملُ العلم إلى أذية إخوانه من المنتسبين إلى أهل العلم!!! فقد كان منهم:

» التبديع والتضليل بل التكفير، فقد أفتى كثير منهم بأنَّه كافر، وعلى رأس هؤلاء «الإخنائي» الذي رد عليه ابن تيمية في كتابه «الاستغاثة».

» السعي عند السلاطين بسجنه، بل أفتى قضاة مصر الأربعة بحبسه، وسجن سبع مرات في الشام ومصر، ما مجموعه خمس سنين تقريبًا، حتى توفي في محبسه رحمه الله تعالى.

» بل لم يقف الأمر عند ذلك فحرضوا عليه العامة حتى ضربوه وشتموه عدة مرات.

» عداك عن كثرة الاستدعاءات إلى مجالس المحاكمات في مسائل فقهية وعقدية مختلفة.

» وفي سجنته الأخيرة أُخرج ما كان عنده من الكتب، والكراريس، والأوراق، والدواة، والأقلام، ومنع من الكتابة، وقراءة الكتب، والتصنيف، حتى صار يكتب بالفحم[1].

» وليس ذلك فحسب بل امتدَّت الأذيّة إلى بعض أصحابه؛ فقد عُزل بعض العلماء من بعض الولايات الشرعية بسبب صلتهم بالشيخ رحمه الله.

«ولقد أنصف ابن فضل الله العمري حيث قال في ترجمة ابن تيمية: فلقد اجتمع عليه عصب الفقهاء والقضاة بمصر والشام، وحشدوا عليه خيلهم ورجلهم، فقطع الجميع وألزمهم الحُجج الواضحات أيَّ إلزام، فلما أفلسوا أخذوه بالجاه والحكام وقد مضى ومضوا إلى المليك العلام ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]»[2].

**القارئ لسيرة ابن تيمية يجد أنَّه كان مُنشغلاً بالدعوة إلى الله، واستنقاذ خواصِّ الناس وعوامِّهم من البدعة والخطأ إلى طريق السنة، وجمع كلمة المسلمين على ذلك، فلم ينظر لمخالفيه نظرة عداء أو انتقام، ولم يقابلهم الأذى بالأذى، بل صبر واحتسب وعفا وأصلح**

## فماذا كان بعدُ من ابن تيمية؟

إنَّ القارئ لسيرة الشيخ يجد أنَّه كان مُنشغلاً بالهدف الأسمى الذي كرَّس حياته له ألا وهو الدعوة إلى الله، واستنقاذ

(١) ينظر: العقود الدرية في مناقب ابن تيمية، ص (٣٦٣-٣٦٤)، والبداية والنهاية (١٣٤/١٤).
(٢) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، ص (٦٢).

الناس خواصِّهم وعوامِّهم من البدعة والخطأ إلى طريق السنة، وجمع كلمة المسلمين على ذلك، فلم ينظر لمخالفيه نظرة عداء أو انتقام، أو رد الإيذاء بمثله، فلم يقابلهم الأذى بالأذى، ولا المؤامرة بالمؤامرة، بل صبر واحتسب وعفا وأصلح، ولم يثنه كل هذا في بيان الحق للناس ورحمته للخلق بهذا البيان وبتعامله وكان قاعدته مع كل من آذاه: «أحللت كل مسلمٍ عن إيذائه لي»[(١)]، «وأنا لا أنتقم لنفسي».

والكلام في منهج الشيخ في الخلاف والمخالفين يطول، ولكن اخترنا ما يتعلق في منهجه في التعامل مع هذا الأذى، كيف تعامل معهم:

## أولاً/ العدل والإنصاف:

وهذا القانون تجده حاضرًا في مقالات الشيخ وتعاملاته مع المخالفين، حتى لو تجاوزوا حدَّ الله فيه بالظلم والبهتان والسب.

قال: «فأهل السنة يستعملون معهم -أي المخالفين- العدل والإنصاف، ولا يظلمونهم، فإن الظلم حرام مطلقًا»[(٢)]

ولما صنّف كتاب «الاستغاثة» ردَّ عليه أحدهم فكفَّره وضلله وشتمه، ومع ذلك لم يقابله بالمثل، بل قال: «وهذا الموضع يغلط فيه هذا المعترض وأمثاله، ليس الغلط فيه من خصائصه، ونحن نعدل فيه ونقصد قول الحق والعدل فيه، كما أمر الله تعالى؛ فإنه أمر بالقسط على أعدائنا الكفار، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨]، فكيف

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٥٥).
(٢) منهاج السنة (٥/١٥٧).

بإخواننا المسلمين، والمسلمون إخوة، والله يغفر له ويسدّده ويوفقه وسائر إخواننا المسلمين»[1].

وقال: «هذا وأنا في سعة صَدْرٍ لمن يخالفني، فإنه وإن تعدَّى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيقٍ أو افتراء أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله، وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتمًا بالكتاب الذي أنزله الله، وجعله هدى للناس، حاكمًا فيما اختلفوا فيه...»[2].

> **«وأنا في سعة صَدْرٍ لمن يخالفني، فإنَّه وإن تعدَّى حدود اللهً فيّ بتكفيرٍ أو تفسيقٍ أو افتراءٍ أو عصبيةٍ جاهلية، فأنا لا أتعدَّى حدودَ الله فيه، بل أضبط ما أقولُه وأفعله، وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتمًا بالكتاب الذي أنزله الله، وجعله هدى للناس، حاكمًا فيما اختلفوا فيه»**
>
> **ابن تيمية**

## ثانيًا/ حرصه على الاجتماع والائتلاف:

فقد كان للشيخ رحمه الله تعالى الجهود العظيمة في هذا الباب تأصيلاً علميًا، وتطبيقًا عمليًا.

وفي المناظرة في «العقيدة الواسطية» لما اجتمع مع العلماء والقضاة بدأ ابن تيمية الكلام، وذكر أن الله أمر بالجماعة والائتلاف ونهانا عن الفرقة والاختلاف، ثم قال بأسلوب قوي: «وربُّنا واحدٌ، وكتابُنا واحدٌ، ونبينُا واحدٌ، وأصولُ الدين لا

(١) الرد على الإخنائي، ص (٩٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/٢٤٥).

تحتمل التفرُّق والاختلاف، وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين وهو مُتَّفقٌ عليه بين السلف، فإن وافق الجماعة فالحمد لله، وإلا فمن خالفني بعد ذلك كشفتُ له الأسرار وهتكتُ الأستار، وبيَّنت المذاهب الفاسدة التي أفسَدَت الملل والدول، وأنا أذهب إلى سلطان الوقت على البريد، وأُعرِّفه من الأمور ما لا أقوله في هذا المجلس، فإنَّ للسلم كلامًا وللحرب كلامًا»[(١)].

وقال: «والناس يعلمون أنه كان بين الحنبلية والأشعرية وحشةٌ ومُنافرة، وأنا كنت من أعظم الناس تأليفًا لقلوب المسلمين وطلبًا لاتِّفاق كلمتهم واتِّباعًا لما أُمرنا به من الاعتصام بحبل الله، وأزلتُ عامة ما كان في النفوس من الوحشة، وبينتُ لهم أن الأشعري كان من أجلِّ المتكلمين المنتسبين إلى الإمام أحمد رحمه الله ونحوه، المنتصرين لطريقه، كما يذكر الأشعري ذلك في كتبه»[(٢)].

وكان يحثُّ المسلمين على الاجتماع ولاسيَّما في الشعائر الظاهرة من جمعة وجماعات وجهاد وأعمال إغاثية وغيرها، فإنَّ هذا أصلٌ من أصول أهل السنة والجماعة.

ولما هاجم التتارُ الشام قام بتحريض السلاطين على الجهاد، وذهب إلى مصر يحضهم على معونة الشام ونسي الخلافات وذهب إلى العلماء والقضاة يحضُّهم على الجهاد ويؤكِّد لهم أنَّ يد الله مع الجماعة حتى نصرهم الله سبحانه وتعالى.

## ثالثًا/ البعدُ عن التبديع والتكفير:

منهج الشيخ في التكفير واضحٌ بيّنٌ، ولم أجد بحسب اطلاعي عالمًا تكلَّم في هذا الباب تأصيلاً وتفصيلاً كابن تيمية، فكان له القدح المعلَّى في بيان قواعد التكفير وضوابطه وشروطه وموانعه، وكان من أبعد الناس عن تكفير الأعيان.

(١) الفتاوى (١٨٢/٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢٧/٣).

فقد بيَّن أنَّ التكفيرَ حكمٌ شرعيٌ لا يخضع للأهواء وردود الأفعال.

ولما كفَّره من كفَّره، قال: «فلهذا كان أهل العلم والسنة لا يكفِّرون من خالفهم وإن كانَ ذلك المخالف يُكفِّرهم، لأنَّ الكفر حكمٌ شرعي، فليس للإنسان أن يُعاقب بمثله، كمن كَذَبَ عليك وزنى بأهلك، ليس لك أن تكذبَ عليه وتزني بأهله، لأنَّ الكذبَ والزنا حرامٌ لحق الله تعالى، وكذلك التكفير حقٌّ لله فلا يُكفَّر إلا من كفَّره اللهُ ورسولُه»[1].

وكان الشيخ رحمه الله شديد التحذير من تكفير الأعيان، وأن يُنسب مسلمٌ إلى كفر من غير حجة بينة واضحة، قال: «هذا مع أني دائمًا ومن جالسني يعلم ذلك مني، أني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا عُلم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية، التي من خالفها كان كافرًا تارة وفاسقًا أخرى وعاصيًا أخرى، وإني أُقرِّر أنَّ الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعمُّ الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العلمية»[2].

وكان يُحذِّر الجهّال أن يَلِجوا هذا الباب الخطير، ويعتبرُ ذلك من أعظم المنكرات، قال: «فإنَّ تسليط الجهَّال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، وإنما أصلُ هذا من الخوارج والروافض الذين يُكفِّرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطؤوا فيه من الدين، وقد اتَّفق أهل السنة والجماعة على أنَّ علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرَّد الخطأ المحض، بل كلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله، وليس كلُّ من يترك بعض كلامه لخطأ أخطأه يكفر ولا يفسق بل ولا يأثم»[3].

(١) الرد على البكري (٤٩٢/٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٢٩/٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠٠/٣٥).

قال الحافظ الذهبي نقلاً عن زاهر السرخسي أنه قال: «لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد، دعاني فأتيته، فقال: اشهد عليّ أني لا أكفِّر أحدًا من أهل القبلة، لأنَّ الكلَّ يشيرون إلى معبودٍ واحدٍ، وإنما هذا كله اختلاف العبارات». قلت -أي الذهبي-: وبنحو هذا أدين، وكذا كان شيخنا ابن تيمية في أواخر أيامه يقول: أنا لا أكفِّر أحدًا من الأمّة، ويقول: قال النبي ﷺ: (لا يُحافِظُ على الوضوءِ إلا مُؤمِنٌ)[1]، فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم»[2].

**من ملامح منهج ابن تيمية في التعامل مع المخالفين الصبر وعدم الانتصار للنفس، فبالرغم من صنوف الأذى من خصومه كالتكفير والتشهير والشتيمة، واستعداء العوام وتحريض الجند وأصحاب الدولة عليه؛ صبر عليهم ولم يقابلهم إلا بالعفو والصفح ومقارعة الحجة بالحجة**

## رابعًا/ الصبر وعدم الانتصار للنفس:

قال ابن تيمية: «فإنَّ الناس يعلمون أنّي من أطول الناس روحًا وصبرًا على مر الكلام وأعظم الناس عدلاً في المخاطبة لأقل الناس»[3].

ولما ألف رسالة مختصرة بعنوان (الاستغاثة) وهي رسالة علمية بالأدلة الشرعية في حكم الاستغاثة، وكان الأليق بالعلماء الذين يختلفون معه أن يتصدَّوا لمثل هذه المسألة بالدليل والبرهان العلمي بعيدًا عن التكفير والحكم بالزندقة والشتائم والسباب.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٣٢)، وابن ماجه (٢٧٧)، والدارمي (٦٥٥) عن ثوبان رضي الله عنه.
(٢) سير أعلام النبلاء (٨٨/١٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٥١/٣).

لكن الشيخ علي البكري كان ردُّه على هذه الرسالة بالحكم على ابن تيمية بالكفر والزندقة والخروج عن ملَّة الإسلام!

ولم يكتف الشيخ البكري -عفا الله عنا وعنه- بمجرد التكفير بل بالغ في إيذاء ابن تيمية بالقول والعمل، فقد قام باستعداء العوام على الشيخ وحرَّض الجند وأصحاب الدولة على شيخ الإسلام وشهَّر به وأقذع الشتيمة في حقِّه.

فتجمَّع الناس وشاهدوا ما حلَّ بابن تيمية من أذيّة وتعدٍ فطلبوا الشيخ البكري فهرب، وُطلب أيضًا من جهة الدولة فهرب واختفى، وثار بسبب ما فعله فتنة، وحضر جماعة كثيرة من الجند ومن الناس إلى ابن تيمية لأجل الانتصار له والانتقام من خصمه الذي كفَّره واعتدى عليه.

وحينما تجمع الجند والناس على ابن تيمية يطالبون بنصرته وأن يشير عليهم بما يراه مناسبًا للانتقام من خصمه البكري؛ أجابهم بما يلي: «أنا ما أنتصر لنفسي»!!

فماج الناس والجند وأكثروا عليه وألحوا في طلب الانتقام؛ فقال لهم: «إما أن يكون الحقُّ لي، أو لكم، أو لله، فإن كان الحقُّ لي فهم في حلٍّ، وإن كان لكم فإن لم تَسمعوا مني فلا تستفتوني؛ وافعلوا ما شئتم، وإن كان الحقُّ لله فالله يأخذُ حقَّه كما يشاء ومتى يشاء»[1].

**«ما رأينا مثل ابن تيمية، حرَّضْنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنَّا وحاجج عنا»**

**القاضي ابن مخلوف وكان خصمًا لابن تيمية**

(١) البداية والنهاية (٧٦/١٤)، العقود الدرية، ص (٢٨٦).

## خامسًا/ العفو وعدم الانتقام:

أما العفو عمن آذاه، فهذا مما تواتر الخبر عنه، بل تجاوز أمره إلى الإحسان لمن آذاه، ممتثلاً صفات المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ومن كلامه رحمه الله فيمن آذوه، في رسالة كتبها لأصحابه، قال: «فلا أحبُّ أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللتُ كلَّ مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حلٍّ من جهتي، وأما ما يتعلق بحقوق الله فإن تابوا تاب الله عليهم، وإلا فحكم الله نافذ فيهم»[١].

وكان ممن سعى في إيذائه القاضي زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية، فقال: «وأنا والله من أعظم الناس معاونةً على إطفاء كلِّ شرٍّ فيها وفي غيرها، وإقامة كلِّ خير، وابنُ مخلوف لو عمل مهما عمل، والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أُعين عليه عدوه قط، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هذه نيَّتي وعزمي، مع علمي بجميع الأمور، فإني أعلم أنَّ الشيطان ينزغ بين المؤمنين ولن أكون عونًا للشيطان على إخواني المسلمين. ولو كنتُ خارجًا لكنت أعلم بماذا أعاونه، لكن هذه مسألة قد فعلوها زورًا والله يختار للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة في دينهم ودنياهم، ولن ينقطع الدور وتزول الحيرة إلا بالإنابة إلى الله والاستغفار والتوبة وصدق الالتجاء، فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[٢].

وذكر ابن كثير رحمه الله: «أنَّ السلطان الملك الناصر، لما رجع إلى الملك مرة ثانية، كان همُّه في طلب الشيخ ورؤيته، فلما تقابلا

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٥٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/٢٧١).

اعتنقا هُنيهةً، ثم أخذ معه ساعةً يتحدَّثان وكان من حديثهما، أنْ طلب الملكُ الناصر من ابن تيمية رحمه الله أن يُفتي في قتل بعض القضاة بسبب ما تكلَّموا فيه، وحثَّه على ذلك، إلا أن ابن تيمية رحمه الله أخذ في تعظيم هؤلاء القضاة والعلماء، وبيان مكانتهم، ويُنكر أن ينالَ أحدًا منهم بسوء، وقال له: إذا قتلتَ هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، ومن آذاني فهو في حلٍّ وأنا لا أنتصر لنفسي».

فلذلك قال القاضي ابن مخلوف وقد كان خصمًا له: «ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا»[(١)].

وفي اللحظات الأخيرة من حياته –رحمه الله– مرض أيامًا في محبسه الأخير في القلعة، فعلم بمرضه أحد وجهاء الدولة وهو شمس الدين الوزير، فجاءه يستأذنه في الدخول عليه لعيادته، فأذن الشيخ له في ذلك، فلما جلس عنده أخذ الوزير يعتذر له عن نفسه، ويلتمس منه أن يحلّه مما عساه أن يكون قد وقع منه في حق الشيخ من تقصير أو غيره. فأجابه ابن تيمية بقوله: «إني قد أحللتُك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق».

وقال له أيضًا: «إني قد أحللت السلطان الناصر ابن قلاوون من حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلدًا غيرَه معذورًا، ولم يفعله لحظّ نفسه، بل لما بلغهُ ممّا ظنَّه حقًا من مُبلِّغه، والله يعلمُ أنَّه بخلافه. ثم قال: قد أحللتُ كلَّ واحدٍ مما كان بيني وبينه»[(٢)].

## سادسًا/ الإحسان إليهم:

والمسلم المظلوم له حق في ردِّ الإساءة بمثلها، أو السكوت ثم العفو، وأرقى من ذلك أن يحسن إليهم، كما فعل يوسف عليه السلام مع إخوته، وكما فعل خاتم الأنبياء مع أهل مكة في عام الفتح. ولا شكَّ أن خيار ابن تيمية كان خيار الأنبياء،

(١) البداية والنهاية (٥٤/١٤).
(٢) العقود الدرية، ص (٢٨٢).

فعفى وأحسن، كما قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فكان يحبُّ الخير لهم، وقال في رسالة كتبها وهو في السجن إلى تلاميذه ومحبيه، يتحدَّث عن خصومه الذين تسببوا في دخوله السجن، وكانوا سببًا في مصادرة كتبه، قال: «أنا أحبُّ لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقرُّ به أعينهم، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات»[١]. وقال أيضًا: «وأنا أحبُّ الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي»[٢].

بل حبُّه للخير لم يختصَّ بالمسلمين، بل تعدَّاه إلى جميع الناس ولو كانوا من الكافرين، فقد قال في رسالة وجَّهها للملك النصراني (سرجون) حاكم قبرص: «نحن قومٌ نحبُّ الخير لكلّ أحد، ونحبُّ أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة»[٣].

بل كان يدعو لهم، قال تلميذه ابن القيم رحمه الله: «وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه، وما رأيته يدعو على أحدٍ منهم قط وكان يدعو لهم، وجئتُ يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدِّهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكَّر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام، فسُرّوا به ودعوا له وعظّموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه»[٤]. بل وصل الأمر أن يحمي الذي ضربه وشتمه!، ولما ضربه ابن البكري وجماعته، تجمَّع الناس بعدها ومعهم الجند وطلبوا من ابن تيمية

(١) مجموع الفتاوى (٤١/٢٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٥٥/٢٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٦١٥/٢٨).
(٤) مدارج السالكين (٣٤٥/٢).

أن يأذن لهم بالانتقام من ابن البكري فرفض ابن تيمية وقال لهم: «إما أن يكون الحقُّ لي أو لكم أو لله؛ فإن كان لي فهو فى حلٍّ. وإن كان لكم؛ فإن لم تسمعوا مني فلا تستفتوني، وافعلوا ما شئتم. وإن كان لله، فالله يأخذ حقَّه كيف شاء متى شاء».

لكنهم لم يكترثوا لكلام ابن تيمية وسعوا في طلب ابن البكري في كل مكان، عند ذلك لم يجد ابن البكري مكانًا يختبئ فيه إلا بيت ابن تيمية، فآواه وخبأه حتى يشفع له عند السلطان فيعفو عنه، وقد فعل»[(١)].

**المسلم المظلوم له حقٌّ في ردِّ الإساءة بمثلها، أو السكوت ثم العفو، وأرقى من ذلك أن يُحسن إليهم، كما فعل يوسف عليه السلام مع إخوته، وكما فعل خاتم الأنبياء مع أهل مكة في عام الفتح، ولا شكَّ أن خيار ابن تيمية كان خيار الأنبياء، فعفى وأحسن**

## وفي الختام:

وبعد هذه الوقفات مع هذه المعالم التيمية في طريقة تعامله مع المخالفين؛ ينبغي علينا أن نستفيد منها في واقعنا المعاصر -معشر العلماء والشيوخ وطلبة العلم والجماعات والهيئات- لأننا وللأسف نجد كثيرًا منها غائبًا من ساحتنا الإسلامية.

نسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق في القول والعمل، والابتعاد عن الخطل والزلل.

(١) البداية والنهاية (٧٦/١٤)، وذيل طبقات الحنابلة (٤٠٠/٢)، والعقود الدرية، ص (٢٨٦).

# اللاجئ والأمان النفسي

أ. محمد أكرم جاويش
صيدلي ومترجم، حائز على درجة الماجستير في اللغة العربية

**للجوء أبعادٌ سياسيةٌ واجتماعيةٌ ونفسية، ومع زيادة حالات اللجوء في السنوات الأخيرة في منطقتنا، زادت الدراسات التي تتناول هذ المسألة من الزاوية السياسية والاجتماعية، لكن الآثار النفسية لم تحظ بالاهتمام الكافي. والحالة النفسية للاجئ من الأمور المهمة التي لا بد من دراستها وتحليلها، لنخرج بمعطيات ونتائج تزيد من وعي اللاجئ، ووعي المجتمعات المستضيفة للاجئين**

يعاني اللاجئ من التأقلم مع قيم الدولة التي لجأ إليها، ويدخل في صراع نفسي دائم بين معتقداته التي اكتسبها في طفولته وامتزجت مع شخصيته والمعتقدات التي يصطدم بها كل يوم في حياته الجديدة، والتي يشعر بالاضطرار إلى قبولها أو السكوت عنها وهو يراها -على أقل تقدير- أنها خاطئة.

الأمان النفسي هو من أشد أنواع الأمان التي يحتاجها المرء في حياته، وهنا يصطدم هذا الأمان مع إيمان المرء بمقومات دينه ودعائم عقيدته، فكل ما يراه أو يتعرض له من صورة أو مشهد أو موقف يتعارض مع مقتضيات إيمانه، يقدح في ذهنه سيلاً من التساؤلات عن مصيره ومصير أولاده في بلد اللجوء، وهذا ما يقض مضجعه ويبعث في نفسه القلق على مستقبله. وربما كان هذا وراء إنشاء مجموعات بشرية على أساس العرق أو الدين أو الثقافة، تكون إما منظمة تحت مؤسسات مدنية أو على شكل جاليات مبعثرة في أحياء تجمع أصحاب الهم المشترك والثقافة المشتركة، يلجأ إليها المرء لكي يحافظ على توازن نفسه ويؤمِّن على موروثه من المعتقدات.

> **يجد الغريب في الغربة مخرجًا نفسيًا كلما حاصرته مفاهيم البلد الجديد وغلبته على نمط حياته؛ فيعدُّ نفسه غريبًا لا ينتمي إلى هذا البلد. وهذا يحميه من سيطرة هذه المفاهيم التي لم يألفها، فينحو بنفسه باللجوء إلى حقيقة الغربة والحياة المؤقتة التي يعزي بها نفسه عن هذا**

## الشعور «بالغربة» ملجأ للأمان النفسي:

وثمة مخرج نفسي يشعر به المرء في قرارة نفسه كلما أحس بنوع من الهجوم من الطرف الآخر، وشعر بغلبة مفاهيم البلد الجديد على نمط حياته، وهذا المخرج هو عَدُّ نفسه شخصًا لا ينتمي إلى هذا البلد. فهو في حِلٍّ من سيطرة هذه المفاهيم الخاطئة بالنسبة له لأنها لا تعنيه، فهو غريب عن هذا البلد، ولا يوجد هنا إلا لفترة مؤقتة. فكلما شعر بالضغط النفسي جراء اصطدامه بما يخالف ما أَلِفَهُ من أنماط معيشية أو تقاليد اجتماعية تنم عن أفكار ومفاهيم عقائدية، نجا بنفسه باللجوء إلى حقيقة الغربة والحياة المؤقتة التي يظل يعزي بها نفسه كلما وجد أنه غريب عن محيطه.

فكأن الغريب يهرب من الغربة لمرارتها، ثم لا يجد له ملجأ سوى الغربة نفسها!

لا شك في أن الغربة حقيقة مؤلمة، تَصِمُ حياة اللاجئ بما يسعى للفكاك منه، وتعرضه للإقصاء والتهميش من قبل أصحاب البلد، هذا إن لم يتعرض للتمييز العنصري والاستعداء، مما يُخَلِّفُ لديه انعزالاً وانطواءً على النفس أو الاكتفاء بالفئة الاجتماعية المصغرة والمقربة منه.

ولكنها هنا – أي الغربة – تشكل عزاءً له عما فقده من قيم معنوية ومعتقدات تُكَوِّنُ شخصيتَه وتُحَدِّدُ أسسَ حياته.

وهذا العزاء وإن كانت له انعكاسات سلبية على مسيرة اندماجه في المجتمع الجديد، وتآلفه مع محيطه البشري، ومشاركة الحياة المادية والفكرية والاجتماعية معهم، إلا أنه يبقى عزاءً نفسيًا لا محيص عنه في حرب الأفكار بين الموروث والمكتسب، لا سيما وهذا المكتسب مصدره «الآخر»، وموجبه الاضطرار.

ويبقى السؤال قائمًا: ماذا لو استوطن اللاجئ بلد اللجوء، وهذا هو الغالب؟

هل سيتخلى عن هويته في مقابل الاندماج في المجتمع الجديد، أم أنه سيحافظ عليها مقابل أن يضحي بأمانه النفسي، حاملاً معه غربته حتى الموت؟ وما تأثير الخيار الثاني على أولاده وأحفاده في بلد اللجوء؟

> **لكي يحافظ اللاجئ على نفسه من الانصهار والذوبان في المجتمع الجديد على حساب شخصيته، يلجأ إلى التمسك بعاداته وقيمه ومعتقداته أكثر مما كان عليه من قبل**

## الانعزال الاجتماعي والصدمة الثقافية:

الهجرة رحلة تتغير فيها معالم الإنسان الداخلية بمقدار كونها رحلة خارجية تتغير فيها المشاهد والعوالم المحيطة به. بعبارة أخرى: ليست الهجرة تركًا فيزيائيًا لمدارج الصبا فحسب، بل هي هجر العادات اليومية والمعايير الاجتماعية والأنماط المعيشيّة التي درج عليها المرء وتغذى على أفكارها وتشرب من مبادئها.

إن انفصال المرء عن البيئة التي نشأ فيها، والوسط الذي اعتاد عليه، والنسيج الاجتماعي الذي استأنس إليه وكان جزءًا منه حتى ذلك التاريخ يولِّد لديه خوفًا ووحدة وغربة، فضلاً عن شعور خفي بتحقير الذات والحط من شأنها. إذ يشعر الغريب في بلد اللجوء بأنه أقل شأنًا من غيره حتى في أبسط أمور الحياة، بل لعله يغبط الطفل الصغير ابن البلد عندما يجده يتحلى بالمرونة والمعرفة والتجربة في التفاعل مع محيطه دون أن يحدث ضجة أو يلفت نظر أحد، ودون أن يصدر عنه ما يشي بالاختلاف أو التباين السلبي الذي يدعو إلى إغفاله أو إقصائه أو تهميشه. فيشعر المهاجر بالتوتر والتردد إزاء الأمور التي تدعوه إلى التفاعل أو المخالطة أو المعاشرة، وهذا يقيد حركاته ويقلل من مشاركته في الحياة الاجتماعية.

والثقافة هي مجموعة الأسس التي تنظم الحياة النظرية والعملية للمجتمعات، بما في ذلك الأمور المادية والمعنوية، تنتقل إلى الفرد من خلال التعلم الاجتماعي، ثم تنتقل عبره إلى الأجيال القادمة[١]. فهي سمة فردية مصدرها المجتمع، وسمة مجتمعية مركزها الفرد. فاللغة والعقيدة والآداب والملبس والمأكل وغيرها الكثير من مظاهر الحياة ما هي إلا أشكال وتجليات مختلفة تتبع الثقافة وتعبر عنها. فعندما يتغير المجتمع الذي طبع أفراده بثقافته، تتغير تبعًا لذلك الثقافة التابعة له أو النابعة عنه.

الفروق الاجتماعية تجعل المهاجر يشعر بصعوبة في التأقلم مع محيطه الجديد، ويشعر بصدمة ثقافية تخلف لديه آثارًا سلبية وأعراضًا مَرَضِيّة في نفسه وروحه. تكون هذه الصدمة قاسية في البداية ثم تخف مع الزمن. وذلك لأن الإنسان يعتاد، أو يشعر في قرارة نفسه بأنه ينبغي عليه أن يعتاد على الأنماط

(١) بتصرف من موقع ويكيبيديا، الصفحة التركية لمادة «الثقافة».

الثقافية/الاجتماعية الجديدة، فهو كائن اجتماعي بالطبع، ولا منجى له من سمته الاجتماعية، ولا معنى لوجوده إلا من خلال الشعور بالانتماء إلى مجتمع.

هنا تظهر المعاناة، وتتجلى التحديات النفسية التي تؤرق الإنسان وتزاحم كينونته الثقافية والفكرية والسلوكية. وربما كان هذا هو تفسير إصرار بعض المهاجرين على ممارسة طقوسهم الثقافية التي تعلموها في بلدهم الأم أكثرَ مما كانوا يمارسونها من قبل. فبينما كانوا يبدون شيئًا من التساهل في اللغة المحكية أو نوعية المأكل أو شكل الملبس عندما كانوا في بلدهم، بل ويقلدون أحيانًا أنماطًا أجنبية في مثل هذه الأمور، نجدهم يتمسكون بتقاليدهم الأصلية، ويدافعون عنها، ويبالغون في إظهارها للآخرين. فكأن التحدي هنا قائم بين الذات والآخر، بين الثبات والانصهار، بين الوجود والفناء. فلا يكتفي المهاجر بممارسة ما ألفه من نمط معيشي سبق وأن درج عليه، بل يشعر في أعماقه بأن ذاته مهددة من قبل غزاة الثقافة الأخرى، وعليه أن يدافع عنها، وإلا سيتلاشى وينقرض. فبدلاً من الرضى بالتوتر المستمر والصعوبة البالغة في تَقَبُّل أو تَعَلُّم الجديد، يلجأ – وبشكل مبالغ ومقصود – إلى المحافظة على إرثه الثقافي وذاته الأصيلة الخالية من شوائب المكتسب والوافد من الآخر، وليت ذلك يقضي على توتره ويبعث في نفسه الرضى والطمأنينة والأمان!

لاحظت في زياراتي إلى بعض المدن التركية أن التركمان اللاجئين من سوريا كانوا يتحدثون فيما بينهم باللغة العربية، ويصرون على تعليمها أولادهم، ورأيتهم يتابعون وسائل الإعلام العربية لمعرفة آخر المستجدات السياسية والثقافية والاقتصادية في البلدان العربية عمومًا، بيد أنهم كانوا يتحدثون باللغة التركية (التركمانية)، ويعلمونها أولادهم عندما كانوا في سوريا، ويتابعون الأخبار والأحداث التركية عندما كانوا

هناك، سعيًا منهم للمحافظة على لغتهم وثقافتهم التركية التي تعود إليها جذورهم، فضلاً عن الفضول الذي يحدو بهم على التعرف إلى الجار الذي تجمعهم به أصول ضاربة في القِدَم. فالصورة انعكست رأسًا على عقب بمجرد حط رحالهم في تركيا باسم الهجرة أو اللجوء، وكأن جذورهم التركية القديمة تركت مكانها لجذور عربية، توقدت شرارتها عندما أحسوا بأنهم على وشك خسارتها.

## آلام الغربة:

إضافة إلى ما ذكر من بعض الآثار النفسية التي تخلفها غربة اللجوء، يمكننا ذكر بعض المشاعر الأخرى التي تنتاب اللاجئين[١]:

- الشعور بالوحدة والفراغ: وينتج ذلك عن إحساس المرء بالذنب لأنه خلَّف وراءه أقرباءه ومعارفه، فهو يشعر بالوحدة وإن كان محاطًا بالبشر، لأنهم لا يملؤون فراغًا أحدثته صدمة تغيير المكان، كما أنه ليس في وسع هؤلاء الجدد ولا من حقهم أن يحتلوا مكانًا كان الأحباب فيه ملء السمع والبصر.
- الشعور بالشوق والحنين: يشعر اللاجئ بالحنين إلى بلده الأم بكل ما فيه من طبيعة وهواء ومدن وشوارع وبنيان وأناس، وكل ما كان يملكه من قبل وصار يفتقده الآن. بل يصل الحنين بالبعض إلى درجة تفضيل مساوئ بلده الأصلي على محاسن بلد اللجوء.
- مشكلة الشخصية: في الغربة تتصارع شخصيتان، إحداهما شخصية المرء في موطنه الأصلي والثانية شخصيته في بلد

(١) للاستزادة في هذا المجال ينظر: دراسة نظرية حول تأثير الهجرة الخارجية على الصحة النفسية للفرد، لجنكيز شاهين، مجلة كلية التربية في جامعة غازي في أنقرة، المجلد ٢١، العدد ٢ (٢٠٠١)، ص (٦٤-٦٥).

اللجوء. ويتفاقم هذا الصراع إذا تشرب أولاد اللاجئ بثقافة المجتمع الجديد وتحولوا إلى جزء منه.

» انعدام قيمة مفاهيم الوطن الأم: فما كان طبيعيًا ومهمًا في موطنه الأصلي لم يعد كذلك في المجتمع الجديد ولا يفيد في فهم واقعه أو تفسير أحداثه. وهذا يؤدي باللاجئ إلى استصغار وربما احتقار تلك المفاهيم على حساب طغيان المفاهيم الجديدة والطارئة واللازمة. وهذا يؤدي إلى تناقضات يعيشها المرء بينه وبين نفسه أو بينه وبين أفراد عائلته.

» انعدام الجذور: إذ إن مؤهلاته الشخصية ومكتسباته الثقافية والاجتماعية لا تفيده في مجتمعه الجديد، فيشعر كأنه منقطع الجذور، أو كأنه وُلِدَ للتو، وهذا يُفَرِّغ تاريخه وميراثه المعرفي من معناه، ويقضي على قيمته وجدواه، تاركًا وراءه جرحًا من الحسرة لا يندمل، وحزنًا على الماضي لا يرتحل.

» التشكك والارتياب: فهو في بلد ومجتمع جديد، فكل ما يراه أو يعاينه في هذا البلد هو جديد وغريب ومجهول بالنسبة له. وهذا يزيد من مشاعر الشك والشبهة لديه.

» الحساسية المفرطة والانكسار: كل ما ذكر سابقًا مضافًا إليه عدم إمكانيته من إنهاء حالة اللجوء والرجوع إلى الوطن يولد لديه يأسًا وانكسارًا، وحساسية مفرطة تجاه الأشخاص والأحداث، وربما انعكست إلى تصرفات تجرح الآخرين وخاصة المقربين منه.

## المقارنات الجائرة:

يستأنس اللاجئ إلى إجراء مقارنات كلما رأى شيئًا مختلفًا من مظاهر الحياة الجديدة عما اعتاد عليه في بلده الأصلي،

وهي مقارنات غير مجدية وغير منتهية، ناهيك عن استهلاكها لطاقة المرء ووقته، وتخليفها حالة نفسية سيئة لديه. فلا يمكن له أن يغير شيئًا مما يراه خاطئًا، هذا إذا عددنا الشيء المستجد خاطئًا أصلاً. إذ إن هذه المقارنات لا تُجْرَى بشكل موضوعي، بل هي ذاتية نابعة عن قناعات أولية وأحكام مسبقة اكتسبها المرء في بلده الأم.

كما أن هذه المقارنات تنتهي غالبًا برجحان كفة مظاهر الحياة الاجتماعية القديمة التي نشأ المرء عليها. فالمقارنة هنا هي صورة نفسية مصغرة عن معركة يخوضها الغريب في أعماقه لكي يثبت شخصيته وينتصر لذاته، ولا يُعْقَل ألا ينتصر المرء هنا وهو الحَكَمُ والفيصل في قضية نظرية مجردة، لا تتجاوز حدود فكره ووساوس نفسه. وهي – أي المقارنات – هروب من حقيقة الواقع المفروضة والمؤلمة إلى ماض زاهر، كان يومًا حقيقةً وواقعًا معاشًا.

> **يستأنس اللاجئ إلى إجراء مقارنات كلما رأى شيئًا مختلفًا من مظاهر الحياة الجديدة عما اعتاد عليه في بلده الأصلي، وهي مقارنات غير مجدية وغير منتهية، ناهيك عن استهلاكها لطاقة المرء ووقته، وتخليفها حالة نفسية سيئة لديه**

ومن نافلة القول إن هذا الانتصار الضمني له من الآثار السلبية على إذكاء وتطوير النظرة الموضوعية للأشياء، وقراءة الواقع والأحداث قراءةً سليمة وصحيحة، لا تشوبها الأفكار الموروثة أو القناعات المسبقة، ناهيك عن إبطاء وعرقلة مسيرة الاندماج في المجتمع الجديد.

لا شك في أن المظاهر الاجتماعية ليست وليدة اللحظة، بل هي نتيجة تراكمية لمفاهيم وتطبيقات ثقافية وأحداث سياسية وظروف اقتصادية وجغرافية، طبعت المجتمع بخصائص تعرفه وتميزه عن غيره. ولعل ذلك من الآيات المشار إليها في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

ونفهم من ذلك أن هذه الفروق والاختلافات هي مما تزين الحياة البشرية على الأرض وتلونها وتغنيها، وتستحق الشكر عليها، لكونها نافذة جميلة نطل منها على أنماط أخرى من مسالك الحياة وطرائق العيش، فليس من المجدي أن تحتكم هذه الفروق إلى موازين القيم وتتعرض للتخطئة والنقد لمجرد كونها مختلفة عن المألوف والمعروف لدينا.

ولا يفهم من قولي تعميم هذه النظرة المتسامحة وإسقاطها على كل صغيرة وكبيرة في سلوك وتصرفات المجتمع، أي مجتمع كان، ولكنني أرمي إلى الاحتمالات التي لا يأباها العقل الراجح والرأي السديد، فاللغة وطريقة المأكل والملبس وغيرها من المظاهر الاجتماعية ليست في أصلها محلاً للتصويب أو التخطئة، وإن كانت مما يمكن أن يُسْتَغل في سلوكيات متنافية مع قيم العدل وموازين الفطرة.

## طرفة وعبرة:

عندما بلغ الطفل محمود، وهو ابن عائلة مهاجرة من الجزائر، السابعة من عمره التحق بالمدرسة في مدينة باريس.

كان المدرس يسأل التلاميذ عن أسمائهم في أول يوم دراسي، وعندما سأل محمودًا عن اسمه، أجاب: اسمي محمود.

فقال له المدرس: لا، أنت اسمك مِنَ الآن «جون فرانسوا».

## أبرز آلام الغربة لدى اللاجئ والمهاجر

١ العزلة الاجتماعية
٢ الخوف من المجهول
٣ الشعور بالدونية
٤ التمسك بالعادات والمعتقدات
٥ صعوبة التأقلم
٦ الصدمة الثقافية
٧ الشعور بالوحدة والفراغ
٨ الشعور بالشوق والحنين
٩ صراع الشخصية
١٠ انعدام مفاهيم الوطن الأم
١١ انعدام الجذور
١٢ التشكك والارتياب
١٣ الحساسية المفرطة والانكسار

وعندما رجع محمود إلى البيت، سألتْه أمُّه: كيف كان يومك الأول في المدرسة يا محمود؟

قال: ليس اسمي محمودًا، أنا جون فرانسوا، لا تناديني بمحمود!

فما كان من الأم إلا أن ضربته ضربًا مبرحًا.

وفي المساء، رجع الأب إلى البيت وسأل محمودًا عن يومه الأول في المدرسة مخاطبًا إياه باسمه «محمود».

فأجابه محمود مثلما أجاب أمَّه: أنا اسمي جون فرانسوا وليس محمودًا.

طبعًا كانت ردة فعل الأب مثل ردة فعل الأم، ونال محمود نصيبه من الضرب من أبيه مثل ما نال من أمه.

وفي اليوم التالي سأل المدرسُ الفرنسي محمودًا: صباح الخير، كيف حالك يا جون فرانسوا؟

أجاب محمود: لا تسلني يا أستاذ، البارحة تعرضت لاعتداء بالضرب من قبل شخصين عربيين!

ترمز هذه القصة بنكهتها الواخزة وسخريتها اللاذعة التي غالبًا هي من نسج الخيال، إلى مشكلة تأزم الهوية لدى أبناء المهاجرين. فلا يتوقع من الطفل أن يَتَحَمَّلَ نبذَ أقرانه ومعلميه وإقصاءهم له تَحَمُّلَ الكبار، وهو لم تترسخ لديه مفاهيم الانتماء والهوية بعد. كما تحوي في طياتها إشارة إلى سياسة الصهر المتبعة في الغرب تجاه المهاجرين، وميدان تطبيق هذه السياسة هو المدارس والمراكز التعليمية المؤسسة على مناهج مقررة وإجراءات ممنهجة في ضوء مفاهيم وثقافة البلد المستضيف، والتي غالبًا تنظر باستعلاء إلى ثقافات البلدان الأخرى، وبالأخص تلك البلدان المستوردة والمستهلِكة لمنتجاتها الفكرية والفلسفية قبل المادية والتقنيَة. وأخطر زمان لتطبيق هذه السياسة هو المراحل الأولى من عمر الإنسان، فلا أسهل ولا أجدى من تمرين صغار السن على عادات وأنماط يرى أربابها أنها ضرورية من أجل دمجهم، في سبيل المحافظة على مجتمع متجانس، وإنشاء أجيال تتحلى بالقيم والتقاليد الخاصة بهذا المجتمع، وتليين خطوط الصدع الأيديولوجية التي تفصل بين الوافدين والسكان الأصليين.

**مَنْ للَّاجئ وقد قُصَّتْ جناحاه، وانْبَتَّتْ جذوره، وماتت آماله، وغامت رؤاه، حتى استحال ورقة خريف ذابلة، تضربها رياح الظلم العالمي، وتقاذفها أمواج الاستبداد الحداثي، وتصفعها أيادي الاستعباد المعنوي، وتناوب عليها نوائب الهجرة والترحال!**

## الخوف من الغريب:

شعار العالم الجديد هو: «احذر جارك!» بيد أن تربيتنا الإسلامية تقول: (ما آمن بي من بات َشبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم)[١] وذلك لأن الجار في المخيلة الحديثة هو الشخص الذي يهددنا باختلافه عنا في معتقداته ونمط حياته[٢]، وينبغي علينا أن نخشاه ونحذره خشيتنا من عدو محدق بنا، يستهدف حياتنا وتقاليدنا وثقافتنا. وعلى الرغم من تحول العالَم إلى قرية صغيرة من خلال التطورات الهائلة التي حصلت في السنوات الأخيرة في وسائل التواصل الحديثة، إلا أن هذه القرية العالمية، على صغرها، كأن الهوة بين أزقتها وميادينها ازدادت، والمسافة بين جدرانها وبيوتها اتسعت!

لقد تغرَّب سكان «القرية» عن بعضهم في العلاقة والاهتمام رغم قربهم من بعضهم في الجغرافيا والمكان، ونفخت المفاهيمُ الحداثية كالحرية الشخصية والفردانية والاستقلالية في أتون هذه الغربة والانعزالية، ما جعلها تنعكس سلبًا على مفاهيم التوادِّ والتراحم، فتغرَّبَت بذلك إغاثةُ الملهوف، وغاب التنفيسُ عن المكروب، وافتقدْنا تَفَقُّدَ المنكوب وإعانتَه!

كان لا بد وفق هذه الرؤية الحداثية المفعمة بالمادية والدنيوية والإقصائية أن يُرْفَضَ الغريبُ مخْتَلِفًا ويُقْبَلَ مُطابِقًا منسجمًا. فكلنا يعرف المساعي الكبيرة التي تقوم بها الدول المستقبلة للاجئين في سبيل دمجهم في مجتمعاتهم، مُمَوَّلِين من قبل الهيئات والمؤسسات الدولية وعلى رأسها منظمات الأمم المتحدة. وكذلك لا يغيب عن أذهاننا أن هذه البرامج التي تهدف في ظاهرها

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧٥١).

(٢) الأستاذ الدكتور كمال صيار، طبيب مختص في الطب النفسي، من موقعه (تاريخ الوصول: ٢٠٢٢/١٠/٢٥):
https://kemalsayar.com/insana-dair/kemal-sayar-ile-goc-ve-gocmen-psikolojisi-uzerine

إلى تقديم الدعم للاجئين من خلال دمجهم في المجتمع الجديد، والقضاء على العوائق والموانع التي تحول دون دراستهم أو عملهم أو إنتاجهم، إلا أن محتوى هذه البرامج يفيض بالمفاهيم والمعتقدات التي أنتجتها الحداثة وتبنتها المؤسسات الدولية والحكومات العالمية، وباتت تفرضها على الدول التي تتبعها ثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا. ولعل مشروع المساواة الاجتماعية بين الجنسين، وتمكين المرأة من العمل خارج بيتها، وانخراطها في الحياة المادية الاستهلاكية على حساب زوجها وأولادها وأسرتها في مقدمة هذه البرامج المنهجة التي تصب جهودها في سبيل حقنها في أذهان الفئات المستهدفة، وعلى رأسهم اللاجئين ممن لا حول لهم ولا قوة.

ومَنْ للَّاجئ وقد قُصَّتْ جناحاه، وانْبَتَّتْ جذوره، وماتت آماله، وغامت رؤاه، حتى استحال ورقة خريف ذابلة، تضربها رياح الظلم العالمي، وتقاذفها أمواج الاستبداد الحداثي، وتصفعها أيادي الاستعباد المعنوي، وتناوب عليها نوائب الهجرة والترحال! مَنْ لَهُ في حمايته من هذه المشاريع الهدامة، وقد كان كل همه أن يحصل على لقمة عيش إنسانية، وكسرة عدالة اجتماعية، وصَدَقَة معنوية تؤخذ من مشاعرهم وإنسانيتهم لتتزكى وتطهر، وتصب في وجدانه لتكسر جمود وحدته وتؤنس سكون وحشته وتلين قساوة غربته!

لا غرابة في أن يكون هذا شأن المجتمعات الغربية: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، لكن ماذا عن المجتمعات المسلمة في نظرتها وتعاملها مع اللاجئين المسلمين؟.

## الغربة.. فرصة للتغيير:

اللجوء عملية اضطرارية وليست اختيارية، فلا يختار الإنسان أن يكون لاجئًا إلا إذا أجبرته الظروف على ذلك. ولا

يعقل أن يُفَضَّل اللجوءُ والهجرة والاغتراب على الوطن والسكن والاستقرار، لِما في الغربة والهجرة من تحديات جسيمة، حاولنا التلميح إلى بعضها في السطور السابقة.

الأحداث السياسية والظروف الاجتماعية على مر العصور أجبرت الإنسان على ترك دياره وتحمل أعباء الهجرة والغربة، بحثًا عما ينشده من أمان أو رفاه أو غنى. وفي الغربة والترحال يطرأ بعض المتغيرات الاجتماعية والنفسية التي لها انعكاس واضح على حياة المرء في بلده الجديد. وكان لا بد للإنسان حيال هذه المتغيرات من ردة فعل تصب في خانة البقاء والاستمرار، بل وحتى الإصلاح والبناء والتطوير. فكل متغير اجتماعي أو سياسي أو مادي فرصةٌ لإعادة النظر في الماضي، وتحسين الحاضر، وبناء المستقبل.

لذلك نجد كثيرًا من الأشخاص المغمورين في بلدهم أصبحوا من المنتجين البنَّائين الفاعلين في الغربة، فالظروف الاجتماعية الجديدة تفتق مواهب الإنسان التي قد تكون مطموسة في بلده الأصلي. فالإنسان عندما يولد وينشأ في محيط ما، يتأقلم مع معطيات هذا المحيط غالبًا بشكل سلبي (مفعول)، ولا يسعى لتغييرها، بل يجتهد لكي يتحرك في الإطار المرسوم له مسبقًا ويتحاشى الممنوع، فالظروف الاجتماعية والسياسية والمادية - ناهيك عن القوانين المحلية - تقيد حركاته ومهاراته وتفكيره، فإذا تخلص الإنسان من هذه القيود مُهِّدَت أمامه الطريق للسير في سبيل تكوين ذاته الخالصة وتحقيق أهدافه البناءة؛ إذ الغربة هنا هي فرصة للإنسان لكي يفكر خارج الصندوق، ومن ثم يحيل ثمار تفكيره إلى معطيات أكثر إنتاجًا وأكثر نفعًا. ولا ندعي أن بلاد اللجوء خالية من التعقيدات القانونية أو المقيدات الاجتماعية، بل نرمي إلى أن مجرد تَغَيُّرِ هذه القوانين هو فرصة لكي يفكر الإنسان من جديد في المُسَلَّمات والمتغيرات، ويعيد تحديد موقعه منها.

هذا فضلاً عن الأمن والسلام الذي كان يعوزه المرء في بلده الأصلي ثم حازه في بلاد الغربة؛ فالحروب التي تعصف بالمجتمعات وتقضي على النسيج الاجتماعي، تأتي على رأس الأسباب الداعية للهجرة، فإذا حط الإنسان رحاله في بلد آمن، تحرر من الخوف على حياته أو حياة أسرته، وبات تفكيره منصبًا على إنشاء ما تهدم، مستفيدًا من مزايا المجتمع الجديد والظروف المستجدة التي كان يفتقدها قديمًا.

ثم إن للترحال وتغيير المكان من الفوائد الجسيمة ما يضيق بنا المقام لذكرها جميعًا، ولكننا نجد في الأبيات التالية للإمام الشافعي إلمامًا بهذه المعاني واختصارًا لهذه الفوائد:

تَغَرَّب عَنِ الأَوطانِ في طَلَبِ العُــلا
وَسافِر فَفي الأَسفارِ خَمسُ فَوائِدِ
تَفَــرُّجُ هَــمٍّ وَاكتِســابُ مَعيــشَــةٍ
وَعِــلمٌ وَآدابٌ وَصُــحــبَةُ مــاجِــد

## «العاقبة للتقوى»:

الإنسان عدو ما يجهل، كما يقولون، فإذا اجتمع العالَم بمفاهيمه الحداثية وبرامجه الأنانية على استعداء الغريب واللاجئ، كان لا بد للاجئ من أن يسعى لكسر حدة هذه العداوة، ويقلل من تأثيرها على حياته وأمانه النفسي.

فإذا تعلم اللاجئ لغة بلد اللجوء وتأقلم مع ثقافته دون التفريط بمبادئه ومعتقداته: تخطى بذلك جدار الغربة والوحدة، وأسس جسرًا للتواصل والتفاهم مع المجتمع الجديد. ولعل ذلك يذيب جليد التقارب بينه وبين الآخرين، ويقضي على كآبة التردد والتوتر لديه، ويأخذ بيده إلى المشاركة في الحياة الاجتماعية، منطلقًا من إيمانه بوظيفته الأزلية في إحياء الأرض وإعمارها بالخير والبر والنفع.

فالآمال ما زالت منعقدة على أصالة الرحمة والمودة في نفوس بني البشر، ولن نعدم أصحاب الرأي السديد والعقل الراجح ممن لم يغتربوا عن حقيقة خلقهم ونداء فطرتهم، مهما طغت وساوس الظلم والعدوان وعلت رايات البغي والطغيان.

فالخير أصل والشر زائل، وليس أجدى في ترسيخ هذا المفهوم في أذهان المظلومين وبعث الأمل والتفاؤل في نفوسهم من الإيمان بالله ووعده:

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

# كأس العالم ٢٠٢٢.. صراع الهوية وحسابات الربح والخسارة

أ. وليد الرفاعي
مستشار تربوي ونفسي

**حدثٌ رياضي عالمي يتكرَّر كلَّ أربع سنوات، تشرئبُّ فيه الأعناق لمن سيتقدَّم على غيره وينال الصدارة في البطولة، وحتى تصل الفرق المشاركة للنتيجة النهائية تُصرَف الكثير من الأموال والجهود والأوقات والطاقات، والموقف الدعوي من هذا الحدث يتراوح عادةً بين التجاهُل والانكفاء والتحذير من إلهاء الشعوب وتسطيح القدوات وتتفيه الأفكار، غير أنَّ هذه النسخةَ من البطولة ظهرت فيها مؤشراتٌ لا يحسن تجاهلها، وهذه المقالة حديث حول هذه المؤشرات.**

## مدخل:

في ثلاثينات القرن الفائت انطلقت المسابقة الكروية الأشهر من على أرض «الأوروغواي» بمشاركةٍ خجولة من (١٣) دولة فقط؛ امتنعت فيها بقية المنتخبات من المشاركة بسبب عقبات نفقات السفر وتكاليفها!

وبقيت منتخبات الدول العربية غائبةً عن المشاركة إلى السبعينات الميلادية، باستثناء مشاركةٍ وحيدةٍ لمنتخب مصر في النسخة الثانية من المونديال الذي يقام كل أربع سنوات.

ثم ما لبثت أن أخذت هذه المسابقة العالمية التي لم تجد فِرقُها تكاليف سفرها زخمًا كبيرًا عامًا بعد عام، إلى أن وصلت إلى مستوياتٍ غير مسبوقة لتنفَق عليها ميزانيات دولٍ بأكملها، وتجيَّش لها جيوشٌ إعلاميةٌ ضخمة؛ وهو ما جعلها حاضرةً في واقع الناس على جميع المستويات العمرية والثقافية؛ وجعلَ رموزَها الأغلى أجرًا على الإطلاق بأرقام فلكيةٍ يصعُب تصديقها؛ وجَعلت للقائمين عليها من الوزن العالمي ما يفوق وزنَ رؤساء دولٍ صغيرةٍ أحيانًا.

وإذا كانت هذه المناسبة «الرياضية» العالمية غير بريئة ولا نزيهة في أهدافها ووسائلها؛ مما يجعل الشقَّ الرياضي فيها

هو الأصغر عمليًا وإن كان الأظهَرَ حضورًا؛ فإنَّ التعمُّق فيما تخبِّئه أو تُحدثه أو تُظهره من مؤشِّرات في جوانب متعدِّدة أمرٌ لا ينبغي تجاوزه أو الغضُّ منه[١].

> **إذا كانت هذه المناسبة «الرياضية» العالمية غير بريئةٍ ولا نزيهةٍ في أهدافها ووسائلها؛ مما يجعل الشقَّ الرياضي فيها هو الأصغر عمليًا وإن كان الأظهَرَ حضورًا؛ فإنَّ التعمُّق فيما تخبِّئه أو تُحدثه أو تُظهره من مؤشِّرات في جوانب متعدِّدة أمرٌ لا ينبغي تجاوزه أو الغضُّ منه**

## جدل الهُوية واصطفاف الجماهير:

بعد قرابة ٩٠ عامًا من تنقُّل انعقاد المونديال من دولةٍ إلى أخرى؛ جاء مونديال ٢٠٢٢م ليكون المونديال الأوَّل الذي يقام على أرضٍ عربية؛ في حين لم يكن للعرب وجودٌ حقيقيٌّ في هذه اللعبةً إلا من خلال مشاركاتٍ رمزيةٍ خجولة؛ غالبًا ما تنتهي في أدوارٍ مبكرة؛ وكان مجرَّد وصول فريق دولةٍ عربيةٍ إلى التصفيات الأولى للمونديال يُعدُّ إنجازًا بحدِّ ذاته في أعين جماهيرهم[٢].

إلا أن هذه الاستضافة فرضت جدلاً واسعًا منذ الإعلان عنها إلى يومنا هذا لاعتبارات عدة - كلُّها خارج إطار الرياضة! -

(١) كان من أبرز صور التوظيف السياسي لهذه المسابقة ما حصل في مونديال ١٩٧٨م الذي أقيم في الأرجنتين والذي حاول فيه رئيسها المنقلب على الحكومة آنذاك التغطية على الأحداث السياسية الملتهبة في البلاد من خلال استضافة هذه المناسبة؛ والتي فاز على إثرها منتخب بلاده بكأس العالم لتلك الدورة محققًا الأهداف السياسية المستهدفة بعد فضيحة اختراقات ورشاوى كبيرة. كما أنَّ توظيفاتها الفكرية والثقافية المختلفة لا تخفى، وجميع ذلك ليس هذا موضع بيانه.

(٢) أول مشاركة للدول العربية كانت في نهائيات كأس العالم عام ١٩٣٤م من خلال منتخب دولة مصر، ثم انقطعت المشاركة العربيّة حتى عام ١٩٧٠م.

وإن كان هذا الجدل والتشكيك في الأهلية ابتدأ من منطلقات واصطفافات سياسية وتنافسية لا تختص بالبلد المستضيف وإنما بانتمائه وبُعده الحضاري من خلفه؛ وأخذ منحًى تصاعديًا كلَّما اقترب موعد المناسبة واتَّضح معها الموقف من عددٍ من القضايا التي لم تكن متناسبة مع المزاج الغربي، والتي كانت في إطار وُجودِ بصمة ثقافية غير غربية على هذه النسخة، والتمنُّع عن شيءٍ -ولو يسير- مما يتعارض مع الهوية المحلية والمحيطة.

وباعتبار أنَّ نقاط التماسِّ بين البلد المستضيف والدوائر الغربية المختلفة كانت في اتجاهات تتناسب مع قيم المجتمعات العربية والإسلامية كقضايا الشذوذ والخمر وما شابهها، فقد بدا لافتًا ذلك الاصطفاف الجماهيريُّ الشعبي لتبدوَ وكأنَّها في خندقٍ واحدٍ مع البلد المستضيف؛ ضدَّ مُجمل الفِرق الأخرى التي تبنَّتً في غالبيَّتها مرجعية دولها الغربية الفكرية والسياسية؛ وانعكس ذلك جليًا في صورٍ متعدِّدة منها: استحضار البعد التاريخي للصراعات بين الأمَم؛ فكانت «الأندلس» حاضرة كما كان استحضار «الاستعمار الفرنسي» عند كلِّ مواجهةٍ كرويةٍ مع «مستعمراته السابقة»؛ وبدا المشهدُ دراماتيكيًا متناقضًا؛ تعلو فيه قضايا قيمية مبدئية كهُتاف مدرَّجات ملعب كرويٍّ بأكمله للدفاع عن المصطفى ﷺ أمام الرئيس الفرنسيِّ مًاكرون؛ والحرص على مظاهر الصلاة في الملاعب وغيرها...، في الوقت نفسه الذي تتعدَّد فيه أوجه التجاوزات الشرعية في تفاصيل كثيرة من المشهد ابتداءً وانتهاءً!

ثمَّ تتابعت الاصطفافات من خلال قضية فلسطين والتي كان عَلَمُها حاضرًا في غالب المباريات العربية؛ حيث تكرَّرت حالات تسلُّل أحد الجماهير إلى أرض الملعب حاملاً العلم الفلسطيني مقابل تسلُّل من الجماهير الأخرى لأحدهم حاملاً علم الشواذِّ وشعارَهم؛ ومن ثم المواقف المتتالية من الصحفيين «الإسرائيليين»

والتي أظهرت للعيان هشاشة المشروع التطبيعي المزعوم على مستوى الشعوب حتى غير العربية والإسلامية منها.

**ظهرت في البطولة اصطفافات من عدة مستويات، تارةً حول قيم المجتمعات العربية والإسلامية، وتارةً في استحضار البعد التاريخي للصراعات بين الأمم، مرورًا بقضية فلسطين والموقف من التطبيع، وفي المقابل كان هناك اصطفاف حول القيم المعادية كالشذوذ والقيم الليبرالية المجانبة للتدين**

وكان من اللافت أنَّها اصطفافاتٌ لم تختصَّ بطبقة الجماهير أو المتابعين وإنما شاركت فيها نخبٌ سياسيةٌ وثقافيةٌ مختلفة على أعلى المستويات؛ تجلَّت واضحةً في موقف وزيرة الداخلية الألمانية وهي تضع شارة الشواذِّ على ساعدها بعد أن أخفته تحت معطفها في تصرُّف لا يتناسب وأبجديات الأمن الداخلي الذي تمثِّله! حتى أصبح محلَّ انتقادٍ من إعلام بلادها نفسه.

في مقابل مواقف تأييد وابتهاج كتل وشخصيات سياسية من الدول العربية والإسلامية لفوز منتخبات عربية، وفي الوقت الذي كانت جماهير كل دولة تشجع منتخب بلادها الذي تنتمي إليه، كانت الجماهير العربية بمن فيهم جماهير البلد المستضيف تهتف لجميع منتخبات الدول العربية بعاطفةٍ جيّاشة، مُتجاوزين بذلك الحدود القُطرية المصطنعة التي وضعها المستعمر الغربي لها.

وفي مشهدٍ لافتٍ بدا أنَّ النزعة العربية غالبةٌ على المشهد؛ حيث لم تحضُر تلك العاطفة تجاه المنتخبات الأفريقية المسلمة المشارِكة بنفس الدرجة والحماس!

وفي الطرف المقابل بدا أنَّ المشاريع الثقافية المختلفة كانت حاضرةً كذلك في موجة الاصطفافات تلك؛ فلم يستطع الليبراليون العرب إخفاء انزعاجهم من المشاعر والسلوكيات التي حملها الجمهور العربي المسلم تجاه بعض القضايا من استدعاء البُعد الديني أو التاريخي؛ رغم أنَّ المشهد مليءٌ بما يسرُّ خاطرهم من التجاوزات الشرعية في الصورة المقابلة.

> **ربَّما كان المكسب الأكبر هو ما أظهره الحدث من تفوُّقٍ حضاريٍّ لواقع المجتمعات والشعوب العربية؛ حيث ظهرت بمظهر المنتمي لبعضها البعض، كذا مفرداتٌ ذاتُ رمزيةٍ عالية كعادات النظافة الشخصية وأدواتها، والرقي في التعامل مع الممتلكات العامة؛ ومستويات الأمان العالي؛ مما أكَّد وجود تميُّز تقف وراءه منظومةٌ أخلاقيةٌ ذاتية**

## خسائر ومكتسبات:

بجردة حسابٍ سريعة مع نتائج المونديال التي تجاوزت الرياضة يمكن رصد النتائج التالية التي لم يسبق أن ظهرت في مناسبات شبيهة، في مشهدٍ حضاريٍّ - فكريٍّ فريدٍ تتابعت أحداثُه مع حالة «النشوة» التي شعرت بها الجماهير إزاء تلك الأحداث، والتي كانت تحلُم بالكثير منها فوجدت فيها مخرجًا من الواقع المزري الذي تعيش به، ومن أهمها:

### » كسر عقدة التفوق الحضاري:

ربَّما كان المكسب الأكبر الذي تحقَّق هو ما أظهره هذا الحدث من تفوُّقٍ حضاري لواقع المجتمعات والشعوب العربية؛ حيث ظهرت بمظهر المنتمي لبعضها البعض على خلاف

الصورة النمطية عنها، وكذلك حضور بعض المفردات اليسيرة لكنَّها كانت لافتةً في وعي الجمهور الغربي، كعادات النظافة الشخصية وأدواتها المستغرَبة لديهم، والرقي في التعامل مع الممتلكات العامة؛ ومستويات الأمان العالٍي الذي أظهر صدمةً للفرد الغربي حيث الفارق الهائل مقارنةً بما يعيشه في بلده؛ مما أكَّد لديه تميُّزًا تقف وراءه منظومةٌ أخلاقيةٌ ذاتية بعيدًا عن سطوة الرقيب الخارجي؛ ولقد بدا تأثير هذه التفصيلات وغيرها كبيرًا لمستوى تناوله في الإعلام الغربي في كبرى منصَّاته المحلية. وكذلك استحضار الاعتزاز باللغة العربية[١] الذي كان حاضرًا في أكثر من مشهدٍ على المستوى الرسمي أو الشعبي منذ انطلاق البطولة، أو حتى على مستوى اللاعبين في مواقف متعدِّدةٍ لافتةٍ كما حصل من أحد لاعبي المغرب الذي أصرَّ -رغم إجادته عدة لغات- على التحدُّث بالعربية، رغم عدم معرفة أحدٍ من الصحفيين بها، معلِّلاً ذلك بعدم مسؤوليته عن عدم إحضارهم لمترجمٍ خاصٍّ لذلك!

يضاف لذلك التميُّز العمراني المبهر للبلد المضيف للبطولة؛ والذي يُبدِّد الانطباعات السائدة عن خيمة العربيِّ وناقته وصحرائه.

ولعلَّ هذا المشهد التفاعلي برُمَّته أعطى دفعةً معنوية كبرى لمنتخبات الدول العربية في الشعور بالندية وتحطيم عقدة التفوق الغربي، والانشداه بالفريق الغربي واللاعب الغربي والمنظومة الغربية، مما انعكس على أدائهم في تفاعلٍ إيجابيٍّ متبادل؛ هذا المشهد الذي يُعدُّ مكسبًا وإن بدا يسيرًا في إطاره الرياضي؛ إلا أنَّ انسحابَه الطبيعي على جوانب خارج الإطار الرياضي يزيدُ من ثقله وأهمِّيته كما أنَّه قدَّم صورةً غير نمطية عن العربي المسلم عند الشعوب الأخرى، تحتوي على بعض

(١) ليس خافيًا أنَّ من أبرز دلائل السقوط والتبعية لأمةٍ على حساب أخرى؛ هو تبعيَّتها الثقافية واللغوية. ولغة المستعمر بقيت حاضرة عند كل أمة مهزومة وتابعة له.

## أمور يحسن مراعاة الخطاب الدعوي لها في المناسبات الرياضية ونحوها

١. الاستثمار الأمثل للأحداث؛ وإبراز المعاني والدلالات الإيجابية دون تكلُّف

٢. البعد عن الخطاب العاطفي المنطلق من مظاهر جزئية مؤقتة

٣. تجنب ما يشعر بالتهوين من شأن المخالفات الشرعية في ذات الحدث وما يصاحبه

٤. عدم ظهور الداعية بمظهر المتابع للأحداث الرياضية وتفاصيلها، فهو مما لا يليق به

٥. الاستفادة من المشتركات والكلِّيات الكبرى لدى الشعوب المسلمة

٦. التأكيد على المشتركات الإنسانية التي تتوافق مع الفطرة

٧. عدم الإحجام عن الإسهام الإيجابي واستغلال الفرص بحجة عدم النقاء التام

٨. الحذر من أن يُستغل الداعية لإضفاء المشروعية على بعض المخالفات الشرعية

معالم التفوق المثير للإعجاب، والفضول لما عداه من جوانب أخرى[١].

وبدا أنَّ الهوية العربية كانت حاضرةً إلى آخر حلقةٍ من حلقات المشهد؛ حيث كان لمشهد إلباس الرداء العربي «البشت» لنجم اللعبة الأول أصداءٌ عالميةٌ واسعة؛ لتحملَ دلالاتٍ ورسائلَ كبيرةً في اتِّجاهات متعددة.

### » بروز مظاهر التميز الأخلاقي:

وذلك من خلال بروز بعض جوانب التفاعل الإيجابي مع الآخر تعاملاً وعطاءً وكرمًا وضيافةً في صورة مستغربة عن تلك البيئات الغارقة في النموذج الفردي الرأسمالي الحادّ؛ وكذلك الأداء الجماهيري الخالي من مظاهر العنف أو التخريب كما

(١) أن تنتقل جماهير الخليج العربي من حالة الانبهار والانصهار مع اللاعب الأجنبي إلى الشعور بالتفوق عليه لا شك أنها نقلة محمودة على مستوى النظرة الذاتية للنفس؛ وأن تنتقل جماهير المغرب العربي من نظرة الانبهار للنموذج الفرنسي والبرتغالي والإسباني إلى استحضار أدواره الاستعمارية وواقعه العنصري؛ هو أيضًا نقلة إيجابية في طريق الوعي الجماهيري.

هو معتادٌ في النسخ السابقة من هذه المسابقة والتي كانت تمارسها جماهير الفرق المهزومة؛ بينما أظهرت الجماهير العربية صورةً أخلاقيةً بإطارٍ فكاهيٍّ لافت، جعلت كثيرًا من الشعارات والعبارات تتجاوزً محيطها العربي لتحقق أشبه ما يكون «بعولمة عربية» ولأول مرة في الواقع المعاصر.

كما أظهرت الأحداث بعضَ المواقف ذات البعد الإنساني عند الشعوب الغربية والتي يؤمن بها قطاع لا بأس به بعيدًا عن سطوة تزوير الإعلام المضلِّل كنبذِ الشذوذ؛ والفردية المطلقة المتحرِّرة من المرجعية.

### » حضور العاطفة الدينية:

بدا ذلك ظاهرًا في استحضار الدفاع عن المصطفى ﷺ؛ والتعبير عن نصرته من خلال هتافات الصلاة عليه من على المدرَّجات؛ أو الاحتفاء بمقام الأمِّ في احتفالات الفوز الرياضي بما يخالف المنظومة الغربية التي تُحضِر الزوجة والحبيبة وتُغيِّب الأمَّ في أدبياتها. أو حضور صورة السجود عند تحقيق الفوز والغلبة، بل وحتى عند الهزيمة في صورةٍ لفتت نظر الصحافة الغربية مثيرةً الكثير من التساؤلات الإيجابية.

إضافةً إلى بعض اللمسات اللافتة لعددٍ من الدعاة في إطار التعريف بالإسلام بوسائلَ ناعمة واستقطاب شخصيات مؤثرة لها حضورُها وقبولُها الجماهيري استثمرت الحدث دون أن تندمج فيه؛ مما أفرز إقبالاً مبهجًا للدخول في الإسلام أو إبداء الإعجاب به من بعض الجماهير الوافدة؛ وهو لا شكَّ مكسبٌ شرعيٌّ معتبر، بعيدًا عن جدل تقييم الدوافع والمنطلقات، وانتقال هذا الحس للدعوة للإسلام من الدوائر الرسمية إلى الممارسات الفردية لبعض المشجِّعين الذين قد لا تبدو عليهم آثار التدين الظاهر، بل قد تصاحبهم العديد من المخالفات الشرعية.

### » ارتقاء الوعي الشعبي:

بعيدًا عن الكثير من الممارسات السلوكية الخاطئة في الميزان الشرعي، وبعيدًا عن الصورة المثلى التي ندعو الناسَ إليها، والتي ينبغي أن تبقى ماثلةً أمامنا، وانطلاقًا من واقع الناس فإنَّنا نستطيع أن نقول: إنَّ الظروف المصاحبة لهذا الحدث أحدثت وجبة ارتقاءٍ إيجابي للجماهير العربية والإسلامية على مستوى الوعي في الصراع الحضاري والاعتزاز بالهوية، كما استدعى المونديال بعدًا تاريخيًا كان مجهولاً أو غائبًا عن عامة الناس ورفعه على السطح ليرفع معهُ وعيهُ بشيءٍ من تاريخه؛ كما كشف المونديال للجماهير العربية والإسلامية زيف الشعارات والمثل الغربية والتي اعتمدت على مرجعية «احترام الحريات» وجعلت منها متكأً لتبرير أسوأ الممارسات الأخلاقية والإنسانية، إلى أن وصلت إلى ما يبدو أنَّه القاع من خلال تقنين حقوق الشاذين، ثم اضطربت كذلك في تطبيق هذه المرجعية عندما تعدَّت على حرية البلد المضيف لهذه الفعالية؛ فأرادت فرض ممارساتها التي تطالب بالحرية لنفسها من خلال مصادرة الحرية لغيرها. وقد كان لسلوكِ عدَّة منتخبات جاء على رأسها المنتخب الألماني في صورته الشهيرة واضعين أكفهم على أفواههم؛ أثرٌ عكسي جعله محل سَخَطٍ بالغ. ولقد شاء الله أن يفقد الغرب اتِّزانه وتزداد أخطاؤه وعنجهياته التي ساهمت في تعزيز بعض المعاني الإيجابية السابقة دون سابق ترتيب.

### » تجاوز الواقع الرسمي:

من اللافت لنظر المراقب أنَّ المبادرات والنتائج السابقة كانت في غالبها الأعمّ ممارسات شعبيةً ما إن وَجَدت مساحاتٍ فارغةً وآمنة حتّى عبَّرت عن نفسها بصورةٍ إيجابيةٍ تجاوزت واقع أنظمتها، مخالفةً لما كانت تعمل على ترسيخه تلك الأنظمة

طوال عقود من الزمن مما يُصادم هويَّتها، وفي هذا إشارات ودلائل بالغة الأهمية.

### » تأثير الاستثناء على الأصل:

في سياق ذكر الإيجابيات السابقة التى أوجدها مونديال ٢٠٢٢؛ نجد أن جلها إيجابيات استثنائية مرتبطة بهذه النسخة تحديدًا لأسباب عدة؛ أبرزها هو مكان إقامتها والظروف المحيطة بها.. مما يعني أن أي إطراء أو تسويغ أو حتى تهوين من سلبيات هذه المسابقة ككل -بسبب إيجابيات هذه النسخة منه- هو عملية تجميل لوجه شائه، وإضفاء مشروعية لمشروع فاسد.. وتغليب للاستثناء على الأصل..

## وقفات مع الخطاب الدعوي:

### ١- بين الانكفاء والاقتحام:

عكف الخطاب الشرعي العام -لفترة طويلة- مناوئًا ومُحذِّرًا من واقع هذه اللعبة وما نتج عنها من هوسٍ في المتابعة وسرفٍ في الإنفاق وتسخيفٍ في الاهتمامات وقلبٍ لموازين القدوات والبطولة..؛ إلا أنَّ الواقع الطاغي والزخم الإعلامي المتزايد لهذه اللعبة، وأحداث هذه النسخة خصوصًا؛ أثَّر على بعض الأصوات الشرعية المتصدِّرة بالتخفيف من حدَّة نقدهم ومقارعتهم؛ محاولين استثمار بعض المشاهد المجتزأة للتأكيد على بعض المعاني مستفيدين من بعض الممارسات التي تحمل دلالاتٍ إيجابيةً كسجود اللاعبين أو صور التضامن مع بعض قضايا الأمة كفلسطين وغيرها؛ بل ربما ذهب فريق ثالثٌ من الدعاة بعيدًا من خلال الاندماج الشعوري مع الحدث بإظهار شيء من «الميولات والاهتمامات الكروية» وربما جعلوه بابًا من أبواب التألُّف أو التبسُّط عند أصحاب هذه الخطاب لجمهورهم الدعوي!

وتعليقًا على ذلك فربما صحَّ القول بأنه سيكون من «المجازفة الدعوية» التعامل مع هكذا أحداث «عامة» من منطلق العزلة التامة والمفاصلة الحَدِّية التي تُعطِّل الاستفادة أو الاستثمار بصورةٍ أو أُخرى؛ أو التي تمتنع عن الإشادة ببعض المكاسب والتقليل منها استصحابًا لفساد الأصل من بدايته؛ وهو انزواءٌ ولجوءٌ للمناطق الآمنة بعيدًا عن متاعب خطوط التماسّ مع الواقع المعاش بتداخُلاته وتعقيداته، وهو موقف وإنٍ كان يستصحب معنى السلامة من الزلل إلا أنه يبقى موقفًا غير فاعل ولا مؤثر لحدث عالمي قائم ومؤثر، رضيناه أم رفضناه.

ما يمكن قبوله من عامة الناس لا يُقبل من خاصَّتهم؛ والنظر إلى الأمر على أنَّه مجرَّد إظهار تأييدٍ لفريق على آخر تسطيحٌ غير مناسب؛ فالظروف المصاحبة لهذه المَسابقة تُقدِّم جملةً من المعطيات ذات تفصيلاتٍ كثيرةً، والتأييد لجزء من الصورة من قبل الدعاة ينسحب على بقية الصورة في نظر عامة الناس، وهنا تكمن المشكلة.

## ٢- بين الاستثمار والاندماج:

وفي صورةٍ مقابلةٍ نجد أنَّ فريقًا من أصحاب الخطاب الدعوي؛ وبدافع استثمار الحدث والاستفادة الدعوية منه؛ تعاطى معه باندفاعيةٍ كاملة؛ وجعل نفسه جزءًا من المشروع الأكبر للمونديال دون أن يَشعر؛ وفرح بمكتسباتٍ تكتيكيةٍ دعويةٍ مقابل خسائر استراتيجية؛ فنزل للحدث أكثر من أنٍ يرتقي به؛ وتماهى مع الواقع حتى غدا جزءًا منه؛ متغاضيًا عن إشكالياتٍ شرعية وتربويةٍ ضخمةٍ تحملها هذه المسابقة/ اللعبة منذ عقود؛ على مستوى تسطيح الاهتمامات أو خلط القيم أو استسهال المنكرات أو الترميز الخاطئ؛ ناهيك عن التوظيف والتسويق لمفاهيم في غاية السُوء؛ إنْ سلمت هذه النسخةُ من جزءٍ منها؛ فلم ولن تسلمَ النسخ السابقة والقادمة منها؛ ويبقى

أنَّ ما يمكن قبوله من عامة الناس لا يُقبل من خاصَّتهم؛ وأنَّ النظر إلى الأمر على أنَّه مجرَّد إظهار تأييدٍ لفريق على آخر هو نوع من التسطيح للأمر؛ فالظروف المصاحبة لهذه المسابقة تُقدِّم جملةً من المعطيات التي تحوي تفصيلاتٍ كثيرةً، والتأييد لجزء من الصورة من قبل الدعاة ينسحب على بقية الصورة في نظر عامة الناس، وهنا تكمن المشكلة. إنَّنا نستطيع أن نخلص بنتيجة أنه في الوقت الذي تقدمت فيه الجماهير بأكثر مما يمكن أن نتوقعه منها؛ تراجع بعض الدعاة بأكثر مما كان ينبغي أن يفعلوا.

وغالبًا ما يقعُ أصحاب هذا الخطاب في تفاؤلٍ خادعٍ واضطرابٍ ظاهرٍ عندما تختفي تلك المشاعر والسلوكياتً الإيجابية وتظهر التجاوزات السلبية الصارخة والمنافية للقيم، وهو ما يلعب عليه الليبراليون والعلمانيون العرب ليحاولوا أن يُثبتوا أنَّ أيَّ مظهرٍ إيجابيٍّ للتديُّن هو استخدامٌ رخيصٌ له في ساحة ليست ساحتَه!

**اللعبة أكبر بكثير من كرةٍ تتقاذفها الأرجل؛ والمشهد الحقيقي هو صراع ثقافات يحقق المستثمر لها أهدافًا في مرمى الفريق الآخر؛ كما أن الانتماء والحماس الذي تبديه الجماهير صوته أعلى من حقيقته؛ فهو انتماء عززه العقل الجمعي العام والظروف المصاحبة له. وعندما يدعم بغرس الوعي وتثبيت الكليات فإنه يأخذ بعدًا إيجابيًا**

## وعليه، فينبغي لخطاب الدعاة وطلبة العلم في هذا الشأن أن يراعي المسائل التالية:

١. الاستثمار الأمثل للأحداث؛ وإبراز المعاني والدلالات الإيجابية في الحدث دون تكلُّف، وتوجيهها لما يعزِّز جوانب الخير والغيرة الإسلامية وزيادة الوعي.

٢. البعد عن الخطاب العاطفي المنطلق من مظاهر جزئية مؤقتة، يكتنفها التناقض، فضلاً عن البناء على شائعات وأخبار غير موثوقة.

٣. ألا يصدر عنه ما يشعر بالتهوين من شأن المخالفات الشرعية في ذات الحدث أو المصاحبة له، فضلاً عن تسويغها؛ والتعليق على الأحداث واستثمارها بأسلوب جميل ومضامين قيمة؛ دون الإغراق في ذلك بصورة تظهر المسلم أمام نفسه بصورة المقصِّر السلبي دائمًا.

٤. كما أنَّ ظهور الداعية وطالب العلم بمظهر المتابع والمترصد للأحداث الرياضية وتفاصيلها، ومن فاز ومن خسر، والتعليق على ما يجري في أرض الملعب، وأحوال اللاعبين، مما لا يليق به، وما يصلح لعموم الناس لا يصلح لخواصهم.

٥. الاستفادة من المشتركات والكلِّيات الكبرى لدى الشعوب المسلمة؛ والانطلاق منها لتحقيق مكتسبات وتعزيز انتمائها لدينها وأمتها.

٦. التجاوز المتَّزن للخطاب الإسقاطي من بعض الدعاة الذي يتغنّى بالصورة المثالية ويجعلُها سببًا لوأد أي إشراقات أو إضاءات هنا أو هناك بحجة عدم النقاء التام.

## وأخيرًا ..

إنَّ المشهد كما سبق يحوي خطوطًا متداخلة تقتضي أدورًا متكاملة من الصرامة أو التمرير أو الاستثمار؛ في ظل رؤية

كلية للملعب بجميع جوانبه؛ حيث إنَّ اللعبة فيه أكبر بكثير من كرةٍ تتقاذفها الأرجل وإنما هو صراع ثقافات يحقق المستثمر لها أهدافًا في مرمى الفريق الآخر؛ كما أن الانتماء والحماس الذي تبديه الجماهير صوته أعلى من حقيقته؛ فهو انتماء عززه العقل الجمعي العام والظروف المصاحبه له. وعندما يُدعم بغرس الوعي وتثبيت الكليات واستحضار مقاصد وجود الإنسان ورسالته فإنه يأخذ بعدًا إيجابيًا؛ وما دون ذلك فإنه سهل التوظيف أو الحرف ليكون خادعًا لا داعمًا.

دعوة

# التفاضل بين حقوق الرجال والنساء

أ. هدى عبد الرحمن النمر
كاتبة ومؤلّفة ومتحدِّثة في الفكر والأدب وعُمران الذات



الفهرس

**قضية المساواة بين الرجل والمرأة من أكثر القضايا التي شغلت الرأي العام في القرن الماضي، وتجاوز الجدل فيها الأوساط الفكرية والثقافية إلى جميع المستويات، بل صارت شعارًا ينادى به دون معرفة تبعاتها وتطبيقاتها ومآلاتها، حتى تطورت ووصلت لمستويات متقدمة، فهل هذه الدعوى صحيحة، وهل هناك تفضيل بين الرجل والمرأة، وما هي معايير التفضيل؟ وهو هل تفضيل مطلق؟ وما الذي ينبني على التطبيق؟**

## مدخل:

مفاهيم «القوامة والولاية» من المفاهيم التي تشوَّشت مع مستوردات النسوية، وصُوِّرَت بهتانًا على أنها مرادفة للوصاية المتسلطة بالتصور والتطبيق الغربي الذي قامت النسوية على مناهضته في مجتمعاتهم؛ فقد كانت نساؤهم محرومات من أقل الحقوق، كالتملُّك، والتعليم، والمشاركة في الحياة العامة. فلم يكن لهن مثلاً حقٌّ في تملُّك غرضٍ من أي نوع ولا حق في ميراث، بل كانت المرأة نفسها تُعَدّ في قوانين كثيرٍ من البلاد جزءًا من الميراث![1] مِن مثل تلك الممارسات تولَّدت لاحقًا اصطلاحات التسلُّط الذكوري والسلطوية الذكورية في الأدبيات النسوية. وهي مصطلحات مفهومة بالنظر لجذورها عندهم، لكن العجب من خلط دلالاتها وتطبيقاتها ومآخذها عندهم بمفاهيم وتطبيقات القوامة والولاية عندنا، مع أنه ليس في شرع الله تعالى ما يساوي المرأة بالعدم أو يحرمها من الميراث أو يجعلها هي ميراثًا، أو يمنعها من أن تكون صاحبة ذمّة مالية خاصة فتتاجر وتدير أعمالاً وتجري عقودًا وتشهد في الشهادات وغير ذلك، فتأمَّل من أين اشتقّوا الاصطلاح وكيف استوردناه نحن!

(١) مادة: النسوية Feminism، في موسوعة بريتانيكا Britannica.

**المعايير البشرية للتفضيل والتفاضل قد تخطئ وتصيب، وتَعْدِل وتجور، ويتقبَّلها الناس أو يتمرَّدون عليها. أما عندما يكون الخلق من الله تعالى والفضل لله تعالى يكون التفاضل بأمر الله تعالى؛ فلا مجال لمثل ذلك التذبذب، وليس للعباد بعدها إلا أن يقولوا «سمعنا وأطعنا»**

## سنّة التفاضل:

من معاني الفضل: الزيادة في الشيء، والابتداء بالإحسان. أما التفاضل فهو التفاوت في الفضل[1].

والمعايير البشرية للتفضيل والتفاضل قد تخطئ وتصيب، وتَعْدِل وتجور، ويتقبلها الناس أو يتمردون عليها. أما عندما يكون الخلق من الله تعالى والفضل لله تعالى يكون التفاضل بأمر الله تعالى؛ فلا مجال لمثل ذلك التذبذب، وليس للعباد بعدها إلا أن يقولوا «سمعنا وأطعنا».

وقد جرت سنّة الله تعالى بالفضل والتفاضل بين الخلق في وجوهٍ عديدة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١. فضل بني آدم على كثير من المخلوقات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

٢. فضل الأنبياء المُصْطَفَين على سائر بني آدم: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. وجاء في ترتيب أولياء الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ

(١) قال ابن منظور في لسان العرب (٥٢٤/١١): والفَضِيلة: الدَّرَجة الرَّفِيعَةُ فِي الفَضْل... والفِضال والتَّفاضُل: التَّمازِي فِي الفَضْل. وفَضَّله: مَزَّاه. والتَّفاضُل بَينَ القَومِ: أَن يَكُونَ بعضُهُم أَفضَل مِن بعضٍ.

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

٣. تفاضل مراتب الأنبياء أنفسهم: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

٤. فضل سيدنا محمد ﷺ على سائر الأنبياء: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع)[١]؛ (فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍ: أُعطيت جوامعَ الكَلِم، ونُصرتُ بالرعب، وأُحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون)[٢].

٥. فضل بني إسرائيل على الناس في زمانهم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦]؛ جاء في تفسير الطبري للآية: «وفضّلناهم على عالمي أهل زمانهم في أيام فرعون وعهده في ناحيتهم بمصر والشام»[٣].

٦. فضل السيدة مريم عليها السلام على نساء العالمين: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٢٣). تنبيه: ذكر العلماء توضيحًا مهمًّا في مسألة تفضيل الأنبياء، حتى يلتزم المسلم معهم الأدب على الوجه المراد، خلاصته أن على المسلم الإقرار بما أخبر الله تعالى به من: فضل الأنبياء على سائر الخلق، ثم تفاضل مراتب الأنبياء، ثم فضل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على سائر الأنبياء في الجملة أو على العموم دون تعيين اسم مفضول، أي: لا نقول نبيّنا محمد خير من النبي فلان على وجه التعيين، وذلك تأدّبًا مع مقام الأنبياء عليهم السلام، وامتثالاً لنهيه صلى الله عليه وسلم: (لا تخيروني مِن بين الأنبياء) (البخاري: ٤٦٣٨).

(٣) تفسير الطبري (٦٩/٢٢).

**ساوى الله جل وعلا بين الجنسين في أصل الخلق، وأصل التكريم، وأصل التكليف والحساب والجزاء، وأصل الحقوق والواجبات. وبعد التساوي في كل تلك الأصول، قدّر سبحانه اختلافهما في: تفاصيل الخِلقة، وطبيعة التكاليف أو صورها أو درجتها، وقسمة الحقوق**

## مكامن التساوي والافتراق بين الجنسين:

وإذا جئنا للكلام على ما بين جنس الذكر والأنثى تحديدًا، فليسا بدعًا ولا استثناءً من سنة الله تعالى في خلقه ومشيئته في كونه. وقد ساوى الله جل وعلا بين الجنسين في أمور، ومايز بينهما في أمور أخرى. فساوى بينهما في:

- أصل الخلق، فكلاهما مخلوق: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]. وكلاهما خُلِق على هيئة مخصوصة بجنسه ومتّسقة مع تكليفه ومسؤولياته: ﴿رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].
- أصل التكريم: فلكلِّ مخلوقٍ حيٍّ قيمة أو كرامة أصيلة، وهذه الكرامة كامنة في كل مخلوقات الله تعالى من الإنسان حتى البعوضة، من حيث إنهم ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].. ثم «يضاف» للإنسان تكريم مضاعف وشرف أعلى على بقية المخلوقات، لِمَا جرت به مشيئة الله تعالى أن ينفخ فيه الروح، ويسبغ عليه من مظاهر التكريم في الخِلْقَة والخُلُق، ويختصَّه بمرتبة الامتثال للعبودية طواعية لا قهرًا، وجاء في التفاسير تفصيل مظاهر التكريم تلك، عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

* أصل التكليف والحساب والجزاء، فالذكر والأنثى كلاهما مُكلَّف بتكاليف ومؤاخذ بمعصيته ومُثاب على طاعته وموقوف أمام الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

* أصل الحقوق والواجبات: فكل من الرجل والمرأة لديه حقوق على الطرف الآخر، وعلى المجتمع، وله حق التملك واتخاذ القرار في سائر شؤونه، وعليه واجبات يؤديها تجاه الطرف الآخر والمجتمع بحسب دوره.

وبعد التساوي في كل تلك الأصول، قدّر سبحانه اختلافهما في: تفاصيل الخلقة، وطبيعة التكاليف أو صورها أو درجتها، وقسمة الحقوق. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦].

**أوجب تعالى لكل من الزوجين على صاحبه حقوقًا، ويتفاضل حق الرجال على النساء بمقدار مخصوص (درجة)، وهي درجة القوامة وتكاليفها. فلأجل التكاليف التي يتحملها عموم الأزواج عظّم الله حقهم على عموم الزوجات**

## قيام الرجال على النساء:

وردت لفظة التفضيل بين الرجال والنساء صريحة في سياق تكليف الرجال بالقيام على النساء، في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ

﴿قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]؛ والقيام على شأن أو على أحد يعني: توليه بالرعاية والصون وحسن السياسة والتدبير. وهذا القيام يتخذ اصطلاح «القوامة» في سياق العلاقة الزوجية، والولاية في غيرها، كما سيأتي بيانه.

قال ابنُ الأَثيرِ: «وكأنَّ الولايةَ تُشعِرُ بالتَّدبيرِ والقدرةِ والفعلِ، وما لَم يجتمع ذلك فيها لَم يَنْطَلِق عليه اسمُ الوالي... والوليُّ: وَلِيُّ اليتيمِ الذي يلي أمرَهُ ويقومُ بكِفايَته. ووَلِيُّ المَرأةِ: مُتَوَلِّي أمرِها القائم على شأنها، والذي يلي عقدَ النكاحِ عليها ولا يَدَعُهَا تَسْتَبِدُّ بعَقدِ النكاحِ دُونَهُ...»[١].

والولاية شرعًا هي: القدرة على التّصرُّف أو تنفيذ القول على الغير[٢]؛ وهي متعدّدة كالولاية في المال، وفي النّكاح، وفي الحضانة؛ وتختلف من تثبت له الولاية من نوع إلى نوع، فقد تكون الولاية للرّجال فقط كما في تزويج النساء، وقد تكون للرجال والنساء كما في الولايات الأصلية التي يباشر صاحبها بنفسه عَقدًا أو بيعًا، وقد تُقَدَّم النساء فيها على الرجال كما في حضانة الأطفال. والإجمال العام في هذا السياق بخصوص المرأة أنها تظل تحت ولاية وليّ شرعي هو أبوها أو من يليه من محارمها بحسب ترتيب الشرع، إلى أن تتزوج فتنتقل ولايتها لزوجها، ويصير الاسم الاصطلاحي لها «قوامة».

وتختلف تطبيقات الولاية وحدودها باختلاف عمر المرأة وحيثيات ظروفها ودرجة قرابة الولي، وأحكامها مفصّلة بوضوح في الفقه، لكنها تعني عمومًا القيام على شأنها بما يصلحها ويصونها ويدفع عنها الضرر، ويشمل ذلك تعليمَها أمور الدين والدنيا، ولا تشمل منعها من التملك أو التصرف في

(١) لسان العرب (١٥/٤٠٦-٤٠٧).

(٢) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٣/١٦٨).

ملكها، ولا تشمل التسلط على ذمتها المالية المستقلة.. ومنذ أكمل الله تعالى شرع الإسلام حتى مضت خير القرون العاملة به لم يشهد تاريخ المسلمين في قيام الرجال على النساء التظلمات التي عانتها نساء الأمم الأخرى؛ وإنما نشأ التظلم واللبس والاستشكال لأسباب سيأتي بيانها.

## لماذا جُعِلت القوامة بيد الرجال؟

كلّف الله تعالى الرجال بالقيام لسببين هيّأهم الله تعالى بهما[1].

» السبب الأول وَهبي، أي وهبه الله لهذا الجنس وجعله فيهم ولا يَدَ لهم فيه: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: أي بحكم ما خصّ الله تعالى به الرجال في خِلقتهم بقوة البدن والعقل والجَلَد ورباطة الجأش والتدبير والحيلة...، وترتب على ذلك ما خصَّهم الله تعالى به من أدوار وأقدرهم عليها من تكاليف كالنبوة والإمامة والقضاء والحكم والغزو، وما شرع لهم من أداء العبادات في جميع الأوقات وخطبة الجمعة والجماعة والأذان، وما جعل لهم من التعصيب وزيادة النصيب في الميراث، وجعل الطلاق بأيديهم والانتساب إليهم... وغير ذلك مما تقرر في أحكام الشرع وتكاليفه.

» والسبب الثاني كَسبي أي كلّف الله تعالى به هذا الجنس فعليهم العمل والسعي للقيام به: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾: أي بحكم ما كلّفهم الله تعالى من مسؤوليات الكَدّ في شؤون المعاش ومختلف أدوار الولاية والتدبير والإدارة التي سبق بيانها، بالإضافة لمسؤولية السعي لكسب القوت والإنفاق في الزواج والجهاد والدّية والرضاع... وغير ذلك مما لم تُلزَم المرأة به في أي دور من أدوارها ولو كانت غنية.

(١) تُراجع تفاسير ابن كثير والبغوي والقرطبي والطبري للآية: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [النساء: ٣٤]

**تعظيم حق الزوج لا يعني بحالٍ تفريط الزوج في حقوق زوجته عليه، إذ إن القيام بحقها عليه من تكاليف قوامته، ولا يُسَوِّغ من باب أولى تَسلّطه وتجبّره عليها تحت دعوى تفضيل أو أفضلية ليست مطلقة بحال!**

## تفاضل الحقوق والواجبات بين الجنسين في مختلف السياقات:

ثم إذا انتقلنا للحقوق، وجدنا إقرارًا لكل جنس بحقوق شرعها الله تعالى له في مختلف السياقات والعلاقات، مع تفاوت مراتب التأكيد على حق أو تعظيم قدره وإثم مخالفته. من ذلك مثلاً:

أوجب تعالى لكل من الزوجين على صاحبه حقوقًا، وجعل حق الزوج على زوجته أعظم من حقها عليه، وطاعتها له في المعروف مُقدّمة على طاعة أبويها وإخوانها. قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أي أنٍ للزوجات على أزواجهن حقوقًا كما أن لأزواجهن عليهنّ حقوقًا، لا أن الجنسين سواء في عين الحقوق ودرجاتها، ثم يتفاضل حق الرجال على النساء بمقدار مخصوص ﴿درجة﴾، وهي درجة القوامة وتكاليفها. فلأجل التكاليف التي يتحملها عموم الأزواج عظّم الله حقهم على عموم الزوجات، كما في الحديث: (لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولا تؤدي المرأة حق الله عز وجل عليها كله، حتى تؤدي حق زوجها عليها كله، حتى لو سألها نفسها وهي على ظهر قتب لأعطته إياه)[1].

(١) أخرجه أحمد (١٩٤٠٣).

من جهة أخرى، فتعظيم حق الزوج لا يعني بحالٍ تفريط الزوج في حقوق زوجته عليه، إذ إن القيام بحقها عليه من تكاليف قوامته، ولا يُسَوِّغ من باب أولى تَسلّطه وتجبّره عليها تحت دعوى تفضيله عليها، فأفضليته ليست مطلقةً بحال! ولو كانت النصوص تخوّل أحدًا مثل هذه الأفهام الهوائية المغلوطة لكان حريًّا بنا أن نرى آثار تطبيقاتها في سير المصطفى ﷺ والسلف من بعده، وهذا لا أصل له قطعًا! بل إن نصوص الوحيين عامرة بتوصيات الله ورسوله بالنساء: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]؛ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢]؛ (واسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خَيْرًا)[١]. وعامرة كذلك بمواقف إنصاف النساء من الرجال، كما جاء عَنْ أُمِّ هانئ قالت: «ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ عامَ الفتح، فوجدتُه يغتسلُ وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلمتُ عليه فقال: (مَن هذه)؟ فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: (مرحبًا بأم هانئ). فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثماني ركعات ملتحفًا في ثوب واحد، فلما انصرفَ قلت: يا رسول الله، زعم ابنُ أمي أنه قاتلٌ رجلاً قد أَجَرتُه، فلانَ ابنَ هُبَيرَةَ، فقال رسول الله ﷺ: (قد أَجَرْنا مَن أَجَرْتِ يا أمَّ هانئ). قالت أم هانئ: وذاك ضحى»[٢].

ومن النصوص الجامعة في موازنة كفتي حقوق الأزواج والزوجات، ما ورد عن المصطفى عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع، كما رواه مسلم: (فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك،

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧).

فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[١].

## تعظيم حقوق النساء في سياقات غير الزوجية:

ومن يستاء من اختصاص جنس الرجال بتعظيم حقوقهم في ذلك السياق، فلعله يثوب إلى رشده إذا اطلع على اختصاص جنس النساء بتعظيم حقوقهن في سياقات أخرى، كبِرِّ الأم ورعاية البنات:

فقد جاء التأكيد على فضل برّ الأم فوق برّ الأب: عن أبي هريرة ﵁ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك)، قال: ثم من؟ قال: (أمك)، قال: ثم من؟ قال: (أمك)، قال: ثم من؟ قال: (ثم أبوك)[٢]. فحقُّ الأم على الأبناء آكدُ من حقِّ الأب، وبرّها مقدّم على بِرّه عند التعارض [أي إذا لم يمكن الجمع بين برّهما أو رضاهما معًا]. وجاء في شرح الحديث في فتح الباري: «وكان ذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاع، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها، ثم تشارك الأب في التربية. وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] فسوَّى بينهما في الوصاية، وخصَّ الأم بالأمور الثلاثة...»[٣]. فهل يقول عاقل إن تعظيم حق الأم يعني الحطَّ من قدر حق الأب وتهوين عقاب عقوقه؟! أم أن المستفاد من هذا التفاضل ترتيب المراتب، ولتُعرف أولويات الحقوق عند حصول تعارض أو لزوم تقديم وتأخير؟!

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧١).
(٣) فتح الباري (٤٠٢/١٠).

وكذلك كثر في نصوص الشرع وآدابه اختصاص البنات في السياقات التي تتناول ثواب تربية الأبناء وإعالتهم، وكذلك الأخوات. من ذلك: (من عالَ ابنتيْنِ أو ثلاثَ بناتٍ، أو أختيْنِ أو ثلاثَ أخواتٍ، حتى يَبِنَّ [أي ينْفَصِلْنَ عنه بتزويجٍ أو مَوْتٍ] أو يموتُ عنهن كنتُ أنا وهوَ كهاتيْنِ، وأشار بإصبعيْهِ السبّابة والوسطى)[1]. (مَن كانَ له ثلاثُ بناتٍ يؤويهن ويرحَمُهنَّ ويكفُلُهنَّ وجَبَت له الجنَّةُ ألبتةَ)، قيل يا رسولَ اللهِ: فإن كانتا اثنتينِ؟، قال: (وإن كانتا اثنتين)، قال: فرأى بعضُ القوم أن لو قالَ: واحدةً، لقال: واحدة[2]. وجاء في «تحفة المودود» لابن القيم: «قال يعقوب بن بختان: وُلِد لي سبع بنات، فكنت كلما ولدت لي ابنة دخلت على أحمد بن حنبل، فيقول لي: يا أبا يوسف، الأنبياء آباء بنات! فكان يُذهِب قولُه همّي»[3].

**كما أنَّ معالجةَ ظلم الوالدين للأولاد لا يكون بتبرّؤ الأولادِ من والديهم، فكذلك سوء قِوامة الرجال حَلُّه لا يكون بسلخ القِوامة عن جنس الرجال، أو المطالبة بإسقاطها، أو العبث بتأويلات النصوص لطمسها، أو الدعوة لتسوية النساء بهم!**

## ما منشأ اللَّبس والإشكال في مسألة القوامة إذن؟

الجهل بشروط الكفاءة الشرعية والمعايير المعتبرة في تأسيس زواج ميمون، وسوء موازنة عواقب الارتباط بالطرف الآخر بالاعتماد على عين الهوى دون نظر العقل، إلى جانب سطحية المعرفة بالذات أو انعدامها. والأنوثة السويّة في المرأة مجبولة على

(١) أخرجه أحمد (١٢٤٩٨).
(٢) أخرجه أحمد (١٤٢٤٧).
(٣) تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم، ص (٢٦).

لين الانقياد للرجولة في الرجل الحقّ. فالتي تتزوّج مَن لا تُجِلُّه ولا تجد له في نفسها هيبة ولا تستشعر منه معاني الرجولة الحقة، سيتعذَّر عليها أن تكون طيّعة معه بنفس رضيّة.

مختلف صور سوء التطبيق التي سادت بيوت المسلمين سببها جهل أفرادهم بحقائق الإسلام وأحكامه عامة، وبالتصوّر الشرعي لمؤسسة الزواج وواجبات وحقوق أطرافها خاصة. وهذ الجهل يجعل المتجبِّر يتمسَّح بالدين والمُستَضعَف يسخط عليه، والدِّين من كليهما براء. ومن أنكى مظاهر سوء الفهم والتطبيق كثرة دعوةِ النساءِ المظلومات المقهورات للصبر على أزواجهن المخالفين أمر الله ورسوله فيهنّ، وتغليف ذلك الحال المعوجّ بطابع الطاعة لله ورسوله ومجاهدة النفس وانتظار الفرج... إلخ. فهذه إعانة للظالم لا ردع له من جهة، وتغريرٌ بالمظلوم من جهة ثانية، وتأصيل لأوهام ذكورية التشريع بتصويره ناصرًا للرجل بإطلاق لمجرد كونه رجلاً مقدَّس المكانة من جهة ثالثة! وإنما الحكمة وضع الصبر في مكانه، والفراق في مكانه، والتمييز بين ابتلاءٍ لا طاقة للعبد في دفعه فيصبر احتسابًا، وبلاءٍ يستجلبُه على نفسه بالانتظار عبثًا!

الحلول المطروحة لتقويم تسلط الرجال وسوء قيامهم على النساء ليست بأقل سوءًا واعوجاجًا. فكما أن ظلم الوالدين للأبناء – مثلاً – ليس حلُّه في تبرّؤ الأبناء من والديهم، كذلك سوء قوامة الرجال ليس حلُّه في سلخ القوامة عن جنس الرجال، أو المطالبة بإسقاطها، أو العبث بتأويلات النصوص لطمسها، أو الدعوة لتسوية النساء بهم! وهذه كلها محاولات مُخِلَّة بسنن الوجود في أصلها قبل أي شيء آخر، ولذلك لم ولن تجد لتفعيلها سبيلاً، وإنما جل ما قدّمته أنها أضافت مزيدًا من اللبس والتشويش في الأذهان والتصورات!

## مجالات التساوي والاختلاف والتفاضل بين الجنسين

الخلل في أساليب التربية، التي تُعوِّد فتيات البيت على خدمة فتيانه المُنَعَّمين بالراحة والكسل، أو تُعوِّد الشاب على طباع العصبية والصياح والانفعال والفورة ليحقق رجولته، أو تجعل الذكور مسموعي الكلمة على الإناث لمجرد كون أولئك ذكورًا وهؤلاء إناثًا بغض النظر عن أيّة اعتبارات أخرى... وغير ذلك من صور التربية الفاسدة التي تستند على أعراف وأفهام وتصوّرات غير منضبطة ولا قائمة على علم صحيح بالدين وآدابه. والأولى والأصحّ تنشئة كل فرد على تحمّل مسؤولياته من حيث هو فرد مُكَلَّف مسؤول، وإفهامه مواطن تميّز كل جنس وما يترتب عليها من ائتمانه على أدوار ووظائف يختصّ بها كلّ، والعاقل من يحترم خلقته ويلزم حدوده وينشغل بما عليه في نطاق عبوديته، كل ذلك على الوجه الذي قرره الشرع دون مغالاة أو تحريف.

**ميدان التنافس الحق الذي يجب أن يشغل كل مؤمن هو التنافس في ابتغاء وجه الله تعالى بمختلف أعمال البر والخير المشروعة. وهذا باب مفتوح على مصراعيه لجميع الناس ذكورهم وإناثهم، وتظلّ المكانة عند الله تعالى في الآخرة مرهونة بمدى قيام كل مُؤتَمَن بأمانة مسؤولياته وواجباته**

## اسألوا ولا تتمنوا:

يتضح مما سبق أن مسألة التفاضل عمومًا وبين الجنسين خصوصًا ليس فيها ولا يُقصد منها الحَطُّ من قيمة المفضول ولا تقديس الفاضل مطلقًا. بل هو أولاً مشيئة الخالق في خلقه وله سبحانه الأمر كله، ثم يترتب على مراتب التفاضل تلك موازين واعتبارات وسنن وجودية وأحكام وتكاليف شرعية؛ فليس للعبد اختراع تطبيقات وإضفاء تصورات لها من عنده، ولا يجوز له الاعتراض عليها أو منازعتها، ولا ينفعه ذلك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يملك حقيقة إلا أن يُقبِل على تعلم وفهم ما تقتضيه وما تتطلبه منه بحسبه.

وقد بيّن لنا ربنا تبارك وتعالى كيف نستقبل أمره في ملكه، بتطبيق وصيتين أوصانا بهما في سورة «النساء»:

* **الأولى:** ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ **[النساء: ٣٢].**

جاء في أسباب نزول هذه الآية أن السيدة أُمّ سَلَمَةَ عليها الرضوان قالت: «يا رسول الله، يغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث»؛ ومنها «أن النساء سألن الجهاد، فقلن: وددنا لو أن الله جعل لنا الغزو فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال»؛ ومنها أنه «لما نزل قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾، قال

الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث، فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء، وقالت النساء: إنا لنرجو أن يكون الوِزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة، كما لنا الميراث علَى النصف من نصيبهم في الدنيا»[(١)]. وأيًّا ما كان السياق الدقيق، فالآية رد مباشر وصريح وواضح من الخالق البارئ جلّ وعلا على كل تلك المقولات والأمنيات التي يمكن أن تُصنَّف اليوم تحت نزعة النسوية أو الذكورية. وجاء في تفسير القرطبي: «نهى الله عز وجل عن التمني على هذا الوجه لما فيه من دواعي الحسد والبغي؛ ولأن الله تعالى أعلم بمصالحهم منهم؛ فوضع القسمة بينهم على التفاوت على ما عَلِم من مصالحهم»[(٢)].

❊ **الثانية:** ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ **[النساء: ٣٢].**

إن ميدان التنافس الحق الذي يجب أن يشغل كل مؤمن هو التنافس في ابتغاء وجه الله تعالى بمختلف أعمال البر والخير المشروعة. وهذا باب مفتوح على مصراعيه لجميع الناس ذكورهم وإناثهم: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وتظلّ المكانة عند الله تعالى في الآخرة مرهونة بمدى قيام كل مُؤتَمَن بأمانة مسؤولياته وواجباته.

## وفي الختام:

الخلاصة أنه لا مجال عند من كرّمه الله تعالى بالإسلام لما ابتُليت به النسويات ومن تبعهن من رؤية تصارعية ونفسية تحدي بين الجنسين. لأن المرجع في كل هذه التشريعات والطبائع لله تعالى ربّ كل الخلائق ومالكهم، وهو سبحانه اللطيف الخبير. ولا مجال للندية والتنازع بين العبد وربه، بخلاف ما يقع عندما يتألَّه بعض العباد على البعض الآخر بالتشريع لهم

(١) ينظر: أسباب النزول، للواحدي، ص (١٥٤).
(٢) تفسير القرطبي (١٦٤/٥).

والتصرف فيهم. ولو شاء الله تعالى أن يجعل القوامة والحكم والنبوة –مثلاً– في جنس النساء عوضًا عن الرجال، ويختص الرجال –مثلاً– بطاقة الحمل والإنجاب، لكان قول المؤمن وقتها كقوله الآن: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، إذ الشأن التسليم لحكم الله تعالى لا تصفية حسابات شخصية.

# النظام في المجتمع: ضرورته وأثره

د. محمد بن سليمان الفارس
أستاذ علم الاجتماع بجامعة ماردين آرتوكلو، مدرس سابق بجامعة حمص

**لكلِّ مجتمع نظامٌ اجتماعي يضبط حركة أفراده نحو تحقيق مصالحهم، وفق منظومةٍ من السلوكيات والقيم، ولكلِّ نظامٍ خصائص ومزايا عن غيره من النُّظم، فما هي معالم النظام الاجتماعي في الإسلام؟ وما وظائفه؟ وكيف يمكن لنا تعزيز هذا النظام للحصول على أقصى قدرٍ ممكنٍ من مزاياه وفوائده؟ المقال الذي بين أيدينا يلقي الضوء على هذه المسائل**

## مدخل:

لا يستطيع الإنسانُ العيش وحده؛ بل تستمرُّ حياتُهُ وتكتمل بوجود الآخرين في محيطه ومجتمعه، والمجتمع هو حلقة مترابطة ضمن الحركة البشرية، وهذه حقيقة ثابتة أشار إليها العلَّامة ابن خلدون في مقدمته؛ وهي أنَّ الاجتماع الإنسانيَّ ضروريّ، فاجتماع الناس واتِّفاقُهم تحت راية دولةٍ أو مجتمعٍ أو شعبٍ أو قبيلةٍ ضرورةٌ لا غنى عنها، وسنة إلهية أصيلة.

وإذا كان المجتمع ضروريًّا للإنسان ولا بُدَّ من وجوده، فإنَّ النظام -على أيِّ نحوٍ كان- ضروريٌّ للمجتمع، ولا يُتصوَّر وُجوده بدونه؛ لأنَّ أهواء الأفراد مُختلفة، ونزعاتُهم متباينة؛ فلا يمكنهم العيش بحريةٍ مطلقةٍ، وإلا لأدَّى ذلك إلى التعارض والتصادم والفساد في الأرض، لذا اقتضت الضرورة وجود قانونٍ عامٍّ ونظامٍ للمجتمع يلتزمُ به الجميع، ويرجعون إليه في منازعاتهم ومشاكلهم.

فالمجتمع لا يكتمل إلا إذا تحقَّقت فيه شروطٌ ثلاثة: فكرٌ مُشترك متَّفقٌ عليه بين الناس، وقانونٌ مكتوبٌ ينظِّم العلاقة بينهم، وسُلطة تحكم وفقًا لهذا القانون، وهذا ما ذهب إليه كثير من العلماء.

والمجتمع السليم هو الذي يعمل أفراده على تحقيق أهدافه وتسليم الراية للأجيال القادمة بسلامة وسلاسة، كما يقول المودودي: في حياة المجتمع تمرُّ لحظاتٌ مهمَّة للتغير لا يمكن

أن تتكرَّر، فعلى المجتمع أن يغتنم هذه الفرصة السانحة بتعقُّل ورَوِيّة لأن عليه أن يُسلِّم الأمور سليمةً لمَن بعده، ولا يُظهِر الفساد في الأرض[١]. ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

**لا يكتمل المجتمع إلا إذا تحقَّقت فيه ثلاثة شروطٌ: فكرٌ مُشترك متَّفقٌ عليه بين الناس، وقانونٌ مكتوبٌ ينظِّم العلاقة بينهم، وسُلطة تحكم وفقًا لهذا القانون**

## مفهوم النظام الاجتماعي:

يذهب «هاري بارنز» H. Barnes إلى أن النُظم الاجتماعية تمثل المؤسسات الاجتماعية، والأساليب التي يستطيع المجتمع الإنساني من خلالها تنظيم وتوصية وتنفيذ الأنشطة المتعددة المطلوبة لإشباع الحاجات الإنسانية.

ويذهب «موريس جينزبرج» M. Ginsberg إلى أن النظم هي مجموعة القواعد والاستخدامات المعتمدة، التي تحكم العلاقات بين الأفراد أو الجماعات. ويذهب «بيتر روز» P. Rose إلى أن النظم الاجتماعية هي الأنساق المعيارية التي تنظم السلوك وتحدد العلاقات الاجتماعية داخل مختلف جوانب الحياة الاجتماعية[٢].

ولو نظرنا في رأي عالم الاجتماع الأمريكي «سمنر» لوجدنا أنّ مفهوم النظام الاجتماعي Social Institution عنده يتألف من جانبين: الأول: فكرة أو مبدأ مشترك بين أبناء المجتمع، والثاني: المؤسسات التي تمنح الفكرة والمبدأ الطابع النظامي

(١) نظام الحياة في الإسلام، لأبي الأعلى المودودي، ص (٣) بتصرف.
(٢) بناء المجتمع الإسلامي ونظمه، لنبيل السمالوطي، ص (١٦).

وتضعها موضع التطبيق بشكل يحقق مصالح الإنسان، ويؤكد «سمنر» بهذا أن النظم تبدأ بأساليب السلوك التي تتحول إلى عادات جماعية، وهذه الأخيرة ما تلبث أن تتحول إلى قيم ومعايير أخلاقية بسبب ارتباطها بالفلسفة الاجتماعية.

**الإنسان عاجزٌ عن اختراع نظامٍ اجتماعي كُلي يتوافق مع الفطرة وينسجم معٍ وظيفة الإنسان في العبودية لله وإعمار الأرض، وبما يصلح لتنظيم العلاقات الإنسانية، لذا فإن النظام الأكمل والأشمل هو ما كان ربانيَّ المصدر**

## النظام الاجتماعي في الإسلام:

الإنسان عاجزٌ تمامًا عن اختراع نظام كُلي، يُقيم نظامه الاجتماعي وُفقه، بحيث لا يصادم الفطرةً، ولا يتضارب مع ما خُلق له من مهمة العبودية لله وإعمار الكون، إضافة إلى دقّة القوانين والموازين التي تصلُح لتنظيم العلاقات الإنسانية، وغُموض وصعوبة اكتشاف هذه القوانين. فقد يجد البعض قوانين يتفقون عليها نتيجة كثرة المؤيدين، لكنها قد تكون مخالفة للفطرة فتنشأ عنها مع مرور الأيام مشكلات وانحرافات. لذا فإن النظام الأكمل والأشمل هو ما كان ربانيَّ المصدر، وسنحاول التركيز في هذه المقالة على النظام الاجتماعي في الإسلام.

يقصد بالنظام الاجتماعي في الإسلام: مجموعة الأحكام الشرعية التي شرعها الإسلام لتنظيم علاقة الفرد بغيره: مسلمًا كان أو غير مسلم، فردًا كان أو جماعة، وكذا الأحكام الشرعية المتعلقة بعلاقة الرجل بالمرأة، وما يتفرع عن هذه العلاقة وما ينشأ عنها من أمور، وعلاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة التاجر بالمنتج وما يتصل بها[1].

(١) النظام الاجتماعي في الإسلام، للدكتور عبد الرافع عبد الحليم السيد، ص (١٤).

فمن المسائل المهمة بالغة الخطورة التي عالجها الإسلام في حياة المجتمعات علاقة الفرد بغيره، وعلى أي وجه تكون هذا العلاقة، علاقة صراع وخصومة وتنازع، أم علاقة تعاون وتكافل وتوادٍّ وإيثار؟ والخلل في هذه العلاقة جعل الإنسانية -وما زالت- تذوق مرارته، كما نرى في فردية المجتمع الرأسمالي، والجماعية البغيضة في النظام الاشتراكي، الذي سحق -ويسحق- شخصية الإنسان، ويدمر ذاتيته، هنا نجد الإسلام قد أقام توجيهاته وشرائعه وهداياته على أساس التوازن الفذ بين الفرد والغير، خاصة المجتمع، فالنزعة الفردية والجماعية أصليتان في فطرة الإنسان، ومتساندتان ومتكاملتان[١].

ينطلق التصور الإسلامي بداية من: أنَّ الناسَ كُلَّهم على هذه الأرض من سلالةٍ واحدةٍ بعينها، فالله خلق نفسًا واحدة وجعل منها زوجها وتكاثرت منهم الذرية، وظلت هذه الذرية تدين باعتقاد واحد ويتحدثون لغة واحدة حتى ازداد عددها وانتقلت كل جماعة منها لمكان وتوزعت على بقاع الأرض، فطرأت عليهم طوارئ أثرت على تنوع لغاتهم ولباسهم وأشكالهم كالطقس والبيئة وطبيعة علاقاتهم.

والإسلام يعترف بهذه الفروقات والتنوُّعات، إلا أنَّه يرفُضُ ما تولِّده هذه الفوارق من عصبية السُّلالة واللون وغيرها من النزعات العنصرية، كالغنى والفقر والنسب والمكانة والقوة والضعف؛ فهو تشريع يتناول مختلف جوانب حياة الإنسان ليُكَوِّن منها مجتمعًا سليمًا مكونًا من أفراد مطمئنين.

## مجالات تطبيق النظام الإسلامي:

الدين الإسلامي ليس مشاعر روحانية وعبادات شعائرية فحسب، بل هو دينٌ ودولة، عبادةٌ وسيادة، اقتصادٌ وجهاد، تربيةٌ فرديةٌ وتعاونٌ جماعي. في المعاملات العسكرية، والتجارية،

(١) ينظر: معالم الثقافة الإسلامية، للدكتور عبد الكريم عثمان، ص (٢٧٧-٢٧٨).

والأُسرية، وأوجه الحياة كاملة فالتشريع الذي أنزله الله على عبده لحياة المجتمع، لم يترك فيه شيئًا بدون أن يوضحه ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

**يعترف الإسلام بالفروقات والتنوُّعات الطبيعية بين البشر، إلا أنَّه يرفُضُ ما تولِّده هذه الفوارق من عصبية السُّلالة واللون وغيرها من النزعات العنصرية، فهو تشريع يتناول مختلف جوانب حياة الإنسان ليُكَوِّن منها مجتمعًا سليمًا مكونًا من أفراد مطمئنين**

## وظائف النظام الاجتماعي في الإسلام:

### (أ) توحيد الفكر وتحقيق التضامن:

جاء الرسول ﷺ إلى بيئة تحكمها القبائل، كل قبيلةٍ لها اعتقاداتُها وعاداتها، فأمضى بينهم ٢٣ سنة في الدعوة، وجمع المؤمنين على اعتقاد واحدٍ بإله واحدٍ وقبلةٍ واحدةٍ وتصوراتٍ واضحةٍ في العقول والقلوب، مما أثمر وحدة المنهج والفكر والعمل ووحدة الوسائل، التي أدَّت إلى التضامُن الإسلامي الشامل، بتماسُك الأمة وتآزُرها، وحِرصِها على تحقيق ما يُقوِّي سيادة العدل والحقِّ فيها، ومنعِ الظلمِ والبغي، لذلك فإن اختلاف عقائد المسلمين مما يفتت وحدتهم، ويُذهب تماسكهم، ويُذكي الصراعات فيما بينهم، فيسهل اختراق الأعداء لحصونهم.

والعقيدة عامل للوحدة وعدم التفريق بين الناس وهي ضابط في حياة الفرد وسلوكه، وكلما ازداد يقين الفرد بعقيدة معينة، ازداد التزامه فكريًّا وسلوكيًّا بمقتضياتها. ونلاحظ صدق هذه الفكرة واضحًا في إقدام أصحاب العقيدة إلى التضحية بأنفسهم في سبيل عقيدتهم -سواء أكانت عقيدة سماوية أم وضعية-

ومن نماذج التضحية بالنفس في سبيل العقيدة الصحيحة: إقدام المسلم على الاستشهاد في سبيل الله والموت دفاعًا عن دينه. ومن أبرز نماذج التضحية بالنفس في سبيل العقائد الوضعية: إقدام بعض فرق البوذية في جنوب شرق آسيا على الانتحار الجماعي بالحرق، تنفيذًا لبعض تعاليم البوذية.

وإذا كانت العقيدة تسهم في صياغة الشخصية المتماسكة، فإنها تسهم كذلك في تحقيق تماسك الجماعة Group Cohesion وتحقيق التكامل الاجتماعي على مستوى المجتمع كله، لما تحققه من الشعور بالترابط والتقارب والألفة والقوة بين أبنائها[١].

## (ب) تكوين الضمير الفردي العام:

الإيمان بالإسلام -عقيدة وشريعة- يُوجِد لدى كل فردٍ مقياسًا للحكم على الأمور بالجواز أو عدمه، وبالخير والشر، وكذا بالعدالة والظلم، والصحة والبطلان، وهذا الضمير الذي يبدأ ذاتيًا يتحول إلى ضمير جماعي، بسبب وحدة الفكر والعمل، والتفاهم التام بين أعضاء المجتمع؛ مما يمنع التنازع، وييسر وحدة الحكم على الأمور[٢].

## (ج) إزالة العصبية السلبية والطبقية:

المقصود بالعصبية المذمومة: التعاون على الباطل بسبب اشتراك المتعاونين في النسب أو الإقليم أو الحرفة أو المذهب الواحد، أو أي سبب آخر، يتحقق به نصرة الغير بالباطل، بسبب هذا الاشتراك العنصري، وقد أنكر الإسلام هذه العصبية الجاهلية، فقال النبي ﷺ: (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس

(١) كتاب مجلة الرسالة - هيئة الأمم تترنح وتتداعى - الجزء ١٦ العدد ٧٥٧، تاريخ ١٩٤٨/١/٥.
(٢) مصنفة النظم الإسلامية، للدكتور مصطفى كمال وصفي، ص (٢٥).

منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)[١]،، بل وصفها بأنها «مُنْتِنَةٌ»[٢].

وبعد أن كان شعار الجاهلية: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا بمعنى كن بجانبه معاونًا له على ظلمه وطغيانه، أصبح الشعار في الإسلام انصر أخاك ظالمًا، بأن تمنعه من الظلم، أو مظلومًا، بالوقوف معه ضد ظالمه[٣].

وسبيل المؤمنين هو الذي طبَّقه الرسول عليه الصلاة والسلام، وطبقه أصحابه من بعده رضي الله عنهم فقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه: «لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًا استخلفته»[٤]، مع أن سالمًا مولى. وسار الصحابة على نهج الرسول الكريم في المساواة وعدم التمييز بين الناس، فيعزلون الجائر المنحرف، ويبقون الأمين المستقيم.

**إذا كانت العقيدة تسهم في صياغة الشخصية المتماسكة، فإنها تُسهم كذلك في تحقيق تماسك الجماعة، وتحقيق التكامل الاجتماعي على مستوى المجتمع كله، لما تحقِّقه من الشعور بالترابط والتقارب والألفة والقوة بين أبنائها**

(١) أخرجه أبو داود (٥١٢١).

(٢) أخرج البخاري (٤٠٩٥) ومسلم (٢٥٨٤) عن جابر رضي الله عنه: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما بال دعوى الجاهلية؟) قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: (دعوها فإنها مُنْتِنَةٌ). كسعه: ضربه على دبره.

(٣) أخرج البخاري (٦٩٥٢) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: (تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره).

(٤) تاريخ الطبري (٢٢٧/٤).

## مواقف تدل على أصل النظام في الإسلام:

هناك مواقف كثيرة من السيرة النبوية تبيِّن وجود ما ينظِّم العلاقة بين أفراد المجتمع وفق رؤية محددة وتصور واضح، ومنها:

### أ. دستور المدينة النبوية:

وثيقة المدينة التي كتبها النبي ﷺ بين سكان المدينة من المهاجرين والأنصار واليهود وغيرهم أكبر شاهد على دقة الإسلام في ضرورة إيجاد نظام يحتكم إليه الناس في علاقاتهم، ووجود مرجعية واحدة حتى تستقيم أمور الناس ولا تتشتَّت جهودهم وعزيمتهم.

### ب. حجُّ أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالناس:

يلاحظ أنه أول حجٍّ تولى إمرته فردٌ من المؤمنين، وقد حُطِّمت الأصنام وأزيلت من حول الكعبة، فكان الحج على شريعة الإسلام، ولكن المشركين كانوا على ما كانوا عليه، ولم يُمنعوا من أداء الحج، لأنه لم يكن قد جاء الوحي بمنعهم. ولكن النبي ﷺ امتنع عن أن يتولى بنفسه القيام بالحج، حتى لا يكون في ذلك إقرار لما يفعلونه من الشرك في الشعائر والمناسك، فأناب أبا بكر عنه[1]، فشعيرة الحج للحج -وهي من الشعائر العظيمة التي تجمع شتات الناس من كل مكان- تحتاج أن يكون لها إمامٌ واحدٌ ينظِّم شؤونها ويشرف عليها.

### ج. فضح المنافقين في سورة براءة:

ومن ذلك تنظيم العمل العسكري والمجتمعي في سورة براءة؛ لكي تكون الجيوش مجتمعة القوى، ولا بد لذلك أن تكون مجتمعة العزم، وذلك بإبعاد المنافقين وفضحهم وكشفهم

(١) خاتم النبيين، لمحمد أبو زهرة، ص (١٠٦٣).

## وظائف النظام الاجتماعي في الإسلام

- توحيد الفكر وتحقيق التضامن
- تكوين الضمير الفردي العام
- إزالة العصبية السلبية والطبقية

لأنهم يريدون الفتنة ويبتغونها، والفتنة في الجيوش طريق مؤكد لهزيمتها.

وأول ما يستفاد من هذا هو التوقِّي والحذر من أهل النفاق؛ فإنَّهم العنصر المخرِّب في بناء المجتمع، ولا يمكن أن يتماسك مجتمعٌ إذا سادَه النفاق، أو تحكَّم فيه المنافقون، ولذا أكثرت السورة الكريمة من ذكر النفاق وأحواله، وأن أهله لا يندمجون في المجتمع، بل يكونون بمنأى عنه عمليًا وشعوريًا، فهم يؤذون فضلاءه، ويستهزئون بفعل الخير، ولكن الرسول ﷺ لم يحاكمهم، وإنما منعهم فقط من المشاركة في المعارك وأرجأ أمرهم، عسى أن يتوبوا ويرجعوا.

الأمر الثاني الذي ذكرته السورة الكريمة وأكدته: أمر المتردِّدين والضعفاء في إيمانهم؛ وهؤلاء ينبغي أن يخلو الجيش منهم، لأنهم يكونون البيئة التي ينشط فيها المنافقون، فيبثُّون فيهم روح الفزع والخوف، والفرار يوم الزحف.

وأخيرًا تمثِّل سورة براءة درسًا حكيمًا للأمة المجاهدة، وكان نزولُها في غزوة تبوك التي لم يحدث فيها قتال، بل رجع المسلمون منها ولم يلقوا كيدًا، وقد جعلها تعالى درسًا في ذلك

فكان التكوين تمحيصًا للنفوس وتنقية للصف، أمّا من تسلل فيه من الضعفاء وأهل النفاق فكُشِفَ أمرهم.

**وثيقة المدينة التي كتبها النبي ﷺ بين سكان المدينة من المهاجرين والأنصار واليهود وغيرهم أكبر شاهد على دقة الإسلام في ضرورة إيجاد نظام يحتكم إليه الناس في علاقاتهم، ووجود مرجعية واحدة؛ حتى تستقيم أمور الناس ولا تتشتَّت جهودهم وعزيمتهم**

## من أبرز سمات مجتمع المؤمنين:

### ١. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

في سورة التوبة، بيَّن الله سمات المجتمع المؤمن، والتي يتميَّز بها عن مجتمع المنافقين، فالكل مُشترِكٌ في النظام والإصلاح فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، وقد قرنت الآية المؤمنات بالمؤمنين، وجعلت الجميع أولياء بعضهم البعض، وحَمّلَتهم -رجالاً ونسَاء- تَبعة الأمر والنهي، التي قُدِّمت على الصلاة والزكاة؛ لأنَّها السِّمةَ الأولى للمجتمع المسلم، ولأفراده، فالإسلام لا يكتفي منهم بإصلاح أنفسهم، بل عليهم إصلاح غيرهم، حتى يَشيع في المجتمع معنى التناصُح والدعوة إلى التمسك بالحق والصبر، وذلك نجده واضحًا في سورة العصر التى بيَّنت أنَّ الطريق إلى النجاة من الفساد والهلاك هو الإيمان والعمل الصالح مع التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وفي سورة الحج ذكر القرآن أهمَّ واجبات الأمة المسلمة حين يمكِّن الله لها في الأرض، ويكون لها دولةٌ وسلطان فقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١]، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -إلى جانب الصلاة والزكاة- أهمُّ ما تقوم به دولةُ الإسلام، ففريضة الأمر والنهي تؤكِّد التكافل بين المسلمين، كما أنَّ الزكاةَ تدلُّ على وجوب التكافل المادي بينهم(١).

إنَّ من أسوأ ما يصيب المجتمعات أن يُخرس الطغيانُ أو الخوفُ الألسن، بحيث لا يكون فيها إعلانٌ لكلمة حقٍّ أو جهرٌ بدعوةٍ أو نصيحةٍ أو تصويبٌ لأوضاع خاطئة، فتروج أسواق الفساد والرذيلة التي لا تجد مقاومةً أو مقاطعةً أو استنكارًا(٢).

وقد ذكر القرآن الكريم من أسباب لعن كفار بني إسرائيل أنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

ومن المعلوم أن طول الإلف للمنكر، والسكوت عليه يؤدي إلى موت الضمير الاجتماعي للأمة، أو مرضه على الأقل، فيفقد المجتمع حسَّه الديني والأخلاقي الذي به يَعرف المعروفَ من المنكر، ويَفقد العقلَ البصير الذي يميز الخبيث من الطيب والحلال من الحرام، والرشد من الغي، وعند ذلك تختل موازين المجتمع، وتضطرب مقاييسه، فيرى السنة والمعروف والرشد غيًا وضلالاً وانحرافًا، ويعتبر التدين رجعية، والاستقامة تزمتًا، والاحتشام جمودًا، والفجور فنًا، والإلحاد تحررًا واستنارة، ... إلخ.

وأسوأ مما تقدم أن يخفت صوت الحق ويُطارد أهله، وتشوه صورتهم، وتتعالى صيحات الباطل، وتتجاوب بها الأرجاء،

(١) ينظر: ملامح المجتمع الإسلامي الذي ننشده، للدكتور يوسف القرضاوي، ص (٥٩-٦٠).
(٢) المرجع السابق، ص (٦٠).

داعية إلى الفساد، آمرة بالمنكر، مزينة له، ناهية عن المعروف، مبغضة صورته ودعاته[١].

> **من أسوأ ما يصيب المجتمعات أن يُخرِس الطغيان أو الخوف الألسنَ، بحيث لا يكون فيها إعلان لكلمة حق أو جهر بدعوة أو نصيحة أو تصويب لأوضاع خاطئة، فتروج أسواق الفساد والرذيلة التي لا تجد مقاومةً أو مقاطعةً أو استنكارًا**

## ٢. العدل قوام المجتمع السليم:

انتبه الفلاسفة القدماء في فترة محاولة فهم الظواهر بأسبابها، بعيدًا عن الخرافات والأساطير إلى ضرورة وجود نظام عادل يحكم بين الناس حتى لا يقع المجتمع بفوضى نتيجة الفساد والطغيان والأنانية، وهذا السبب هو الذي دفع أفلاطون للتصريح بأن الحكام ينبغي أن يكونوا فلاسفة؛ لأنهم يدركون معنى وأثر العدل، ولأنَّ نفوسهم تنطبع على حُبِّ العدالة بحُكم فلسفتهم. وإدارةُ الدولة لا تحتاج إلّا إلى كثير من العدالة وقليل من العلم.

الأمم الغربية اليوم فقيرة بفلسفة أفلاطون (العادلة)، وغنية بفلسفة نيتشه الذي نادى بالسوبرمان (الإنسان المتفوِّق) التي تربط الدولة كلَّها أو الجماعة بشخصٍ فيتفوَّق أتباعُه على غيرهم كما تفوَّق هو على غيره، وسار على فلسفته غليوم الثاني وهتلر الأول فذهبا ضحية فلسفته»[٢].

(١) المرجع السابق، ص (٥٩).
(٢) كتاب مجلة الرسالة، هيئة الأمم تترنح وتتداعى، ص (١٣)، المكتبة الشاملة الحديثة.

أما عند المسلمين فقد جعل الإسلامُ العدلَ من مقوِّمات الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية، حتى جعل القرآن إقامةَ القسط بين الناس هدفَ الرسالات السماوية كُلِّها، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وليس ثمة تنويهٌ بقيمة القسط أو العدل أعظم من أن يكون هو المقصود الأول من إرسال الرسل وإنزال الكتب.

والمراد بالعدل: إعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، سواءً كان صاحب الحق فردًا أم جماعة، أم شيئًا من الأشياء، أم معنى من المعاني، بلا طُغيان ولا إخسار، فلا يُبخَس حقُّه، ولا يجورُ على حقِّ غيره، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

والإسلام يأمر المسلم بالعدلِ مع النفس، بأن يُوازن بين حقِّ نفسِه وحقِّ ربِّه، وحقوق غيره، وبالعدل مع الأسرة: مع الزوجة أو الزوجات والأبناء والبنات، مع الوالدين والإخوة والرحم..

يأمر بالعدل مع من نُحب، ومع من نكرَه ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨].

عدل في القول في حالتى الغضب والرضا، وعدل في الشهادة، وعدل في الحكم، وبقدر ما أمر الإسلام بالعدل وحث عليه، حرم الظلم أشد التحريم، وقاومه أشد المقاومة، سواء ظلم النفس، أم ظلم الغير، وبخاصة ظلم الأقوياء للضعفاء، وظلم الأغنياء للفقراء، وظلم الحكام للمحكومين[١].

وهناك عدالةٌ تقوِّي بناء الجماعة، ويُنفِّذها المسلم من غير قهر ولا ضغط، بل هي نابعةٌ من إيمانه، وهي العدالة النفسية كما سماها الشيخ أبو زهرة، بأن يُقدِّر كلُّ إنسان لنفسه من

(١) المرجع السابق، صـ ١٣٥.

الحقوق، بمقدارِ ما يُقدِّره لغيره، على ألا يزيد على الناس في حق، وقد يَفرضُ على نفسه الزيادة في الواجب، وقد نصَّت على هذه العدالة أحاديث الرسول ﷺ ومنها: (وأَحِب للناس ما تحبُ لنفسك تكن مؤمنًا)[1]، و(والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه من الخير)[2].

**أساس نظام المجتمع في الإسلام هو العقيدة الإسلامية؛ التي دعت الإنسان أن يعرف مركزه في الحياة وعلاقته بالكون والغرض الذي من أجله خُلِق، وهذه العقيدة هي الموجِّهة لأفكار الإنسان وسلوكه وسائر تصرفاته، وهذا خير ضابط وناظم للمجتمع الإسلامي في سائر شؤونه وعلاقاته**

## أهداف النظام الإسلامي:

قال الغزالي: «ومقصود الشرع من الخلق (الناس) خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم»[3]؛ فلابد من حفظ خمسة أشياء في المجتمع حتى يقال عنه مجتمع منظم وسليم ومعافى، هذه الأمور الخمسة سمتها الشريعة الضروريات الخمسة.

ومعنى كونها ضرورات: هو أنها ركنٌ لا بدَّ منه في قيام مصالح الناس في الدين والدنيا، بحيث إذا فُقِدت لم تَجْرِ مصالح الدنيا على استقامة؛ بل على فسادٍ وفوضى، و«حفظ هذه الضروريات الخمس هو مقصد جميع الشرائع الإلهية

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧).
(٢) أخرجه النسائي (٥٠١٧) وأصله في البخاري (١٣): (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).
(٣) المستصفى، للغزالي، ص (١٧٤).

والمحور الذي تدور أحكامها حوله؛ لأن استقرار حياة الناس دينيًّا ودنيويًّا متوقف عليها، ومرهون بحفظها، فإذا ما فُقِدت اختلَّت الحياة في الدنيا، وانعدم النظام في المجتمع، ووجب العقاب بحقِّ كلِّ مفرِّط ومتهاون»[١].

قال الشاطبي: «قد اتَّفقت الأمة -بل سائر الملل- على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس»[٢].

ولقد توافرت دلالات الكتاب والسنة على وجوب حفظ هذه الضروريات الخمس، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٢].

## خاتمة:

«إذا كان لكل مجتمع نظام على نحوٍ ما، فإنَّ صلاحَ وفساد النظام ينعكس على أفراده ويتأثرون به، ويتحملون تبعاته، فيسعدون به أو يشقون.

وإنَّ أساس نظام المجتمع في الإسلام هو العقيدة الإسلامية؛ التي دعت الإنسان أن يعرف مركزه في الحياة وعلاقته بالكون والغرض الذي من أجله خُلِق، وهذه العقيدة هي الموجِّهة لأفكار الإنسان وسلوكه وسائر تصرفاته»[٣]، وهذا خير ضابط وناظم للمجتمع الإسلامي في سائر شؤونه وعلاقاته.

(١) عناية الإسلام بتربية الأبناء، مرجع سابق، ص (١٢٠).
(٢) الموافقات (٣١/١).
(٣) ينظر: أصول الدعوة، للدكتور عبد الكريم زيدان، ص (١٠٣).

تزكية

# سلسلة الخطأ.. أنواعٌ وعلاجات

أ. محمود درمش
كاتب في قضايا التربية والفكر



الفهرس

**الأخطاء التي يقع فيها الإنسان يمكن البحث فيها من جهتين: من جانب كونها معصية ومخالفة شرعية، ومن جانب آثارها السلوكية والاجتماعية، وفي كلا الحالتين لا بدَّ من المعالجة الفورية حتى لا تتكرَّر وتتحوَّل إلى عادةٍ متأصِّلة، وهذه المقالة تسلِّط الضوء على أنواعها، وقابليتها للتسلسل، وكيفية التعامل معها عند وقوعها**

## المعصية في تاريخ الإنسان:

أخبر الله تعالى الملائكة بأنّه سيخلق الإنسان ويجعله ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، لكنّه تعالى أسكنه الجنة، وهذا أمرٌ ملفتٌ، فإذا كان خَلَقه ليكون خليفة في الأرض، فلماذا يُسكنه الجنة؟!

لعلَّ الإجابة تكمن فيما جرى بعد ذلك من الاختبار الذي تعرَّض له، حيث ابتلاه الله بالنهي عن الأكل من شجرةٍ واحدة دون بقية ثمار وأشجار الجنة ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، فزلَّ آدم وأكل من الشجرة المنهيّ عنها.

عرف آدم عليه السلام بأنّه أخطأ هو وزوجه بعد أن رأيا أثر المعصية عليهما ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١]، وبأنّ هذا الخطأ سيُغضب الله جل في علاه، ولما عاتبهما الله تعالى على فعلتهما وذكّرهما بأنّه نهاهما عن الشجرة، وأنّه حذَّرهما من الشيطان وكيده؛ تابا إلى الله وأظهرا الندم ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، بعدها جاء الأمر الإلهي بالهبوط إلى الأرض؛ فالغاية من سكنه الجنةَ قد اكتملت، وتعلَّم آدم عليه السلام كيفية التصرُّف إذا وقع في الخطأ، بأن يتوب إلى ربِّه ويطلب منه العفو، ويُصلح عملَه اللاحق.

وسبق هذه الأحداث امتحانٌ آخر سقط فيه إبليس حين أبى أن يسجد لآدم، ثمَّ لم يَتُب ولم يُظهر الندم، بل أظهر الكبر والغرور،

وتمادى في غيِّه؛ بما قطع عليه طريق التوبة إلى يوم القيامة، وحينها أعلن المزيد من العصيان والإصرار على الخطأ بتكريس حياته في صرف الناس عن الطريق المستقيم ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

**وقوع المعصية من البشر أمرٌ حتميٌّ قدريٌّ لا مفرَّ منه، والشأنُ ليس في منعِها، بل في كيفية التعامل معها عند وقوعها، مع عدم الاستهانة بالوقوع فيها بحجَّة القَدَر**

## وقوع المعصية قدرًا:

من أهم الأمور التي تُبيِّنها هذه القصة بما فيها من أحداثٍ وتفاصيل: أنَّ وقوع المعصية من البشر أمرٌ حتمي قدري لا مفرَّ منه، وأنَّ الشأن ليس في منعِها، بل في كيفية التعامل معها عند وقوعها، مع عدم الاستهانة بالوقوع فيها بحجة القدر؛ فالعبدُ الذي يرجو لقاء ربِّه يفعل كما فعل آدم عليه السلام، فيتوبُ ويندمُ ويعقدُ العزم على عدم العودة، والعبد الذي لا يؤمن بالآخرة أو لا يكترث بما يمكن أن يجرَّه عليه الخطأ، لا يفكِّر في التوبة، وقد لا يعترف بخطئه، ويجتهد في إيجاد المبررات والمسوّغات مهما كانت تافهة.

وهذا المعنى تؤكِّده النصوص الشرعية بشكل واضح وصريح، قال النبي ﷺ: (كلُّ بني آدم خَطَّاءٌ، وخيرُ الخَطَّائِينَ التَّوابون)[1]، فالشارع ينهى عن المعاصي والمحرّمات وهو يعلم أنّ الناس سيقعون فيها، لما جُبِلوا عليه من النقص، وفُطِروا عليه من الغرائز وما يحيط بهم من الشهوات. ويرشدهم إلى الفعل الصحيح إذا وقعوا فيها، وهو التوبة. وهناك حديث آخر أكثر صراحةً في هذا

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩) وابن ماجه (٤٢٥١) وأحمد (١٣٠٤٩) والدارمي (٢٧٦٩).

المعنى، وهو قوله ﷺ: (والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون فيستغفرون الله تعالى، فيغفرُ لهم)[1]، فهذان الحديثانً ليسا لتوهين أمر المعاصي، فالمطلوب من المرء غاية التحرُّز من المعاصي واجتنابُها، لكنّهما يُفهمان في ضوء صفة الله تعالى: (الغفار) و(الغفور)، ومما قيل في معنى الحديث أنّه: «ورد مورد البيان لعفو الله عن المذنبين وحسن التجاوز عنهم؛ ليعظِّموا الرغبة في التوبة والاستغفار، والمعنى المراد من الحديث هو: إنَّ الله تعالى كما أحبَّ أن يُحسن إلى المحسن أحبَّ أن يَتجاوز عن المسيء، وقد دلَّ على ذلك غير واحد من أسمائه: الغفار، الحليم، التواب، العفو ... فإنّ الغفار يستدعي مغفورًا، كما أنّ الرزاق يستدعي مرزوقًا»[2].

## الله غفور رحيم يحب التوبة والإقلاع عن المعصية:

هنا يفهم المرء جانبًا من مغزى الحياة وإيجاد الخلق، وهو عبادة الله تعالى والخضوع له والتذلُّل في عبادته، وهذا يكون أقرب ما يكون في حالين: في حال الخلوة بالله تعالى وكمال الاتِّصال به سبحانه بالعبادة بالذكر والسجود وسؤاله من فضله، والشوق إلى جنته. وفي حال الانكسار والضعف وخشية العقاب الذي قد يورثه الوقوعُ في المعصية، والخوفُ من العذاب الأليم في النار.

فالله سبحانه وتعالى خلق عباده على هذه الهيئة من قابلية المعصية، وإمكانية الذنب، لحِكمٍ عظيمةٍ وغايات سامية، «إنَّ الله رحيم بعباده. وهو يعلم ضعفهم وعجزهم... ويعلم أنَّ الشيطان يقعد لهم كل مرصد، ويأخذ عليهم كل طريق، ويُجلب عليهم بخيله ورجله، وأنه جادٌّ كلّ الجدِّ في عمله الخبيث! ويعلم أنّ بناء هذا المخلوق الإنساني بناءٌ واهٍ، وأنَّه مسكينٌ سرعان ما

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة، للتوربشتي (٥٤١/٢).

يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده، وأنَّ ما رُكِّب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشطُّ به هنا أو هناك، ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم.

يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كلّ هذا فيمدُّ له في العون؛ ويوسِّع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيئ له جميع الوسائل ليُصلح خطأه ويُقيم خُطاه على الصراط، وبعد أن يلج في المعصية ويُسرف في الذنب، ويحسب أنّه قد طُرد وانتهى أمره، ولم يعُد يُقبل ولا يُستقبل؛ في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]»[١].

والعاقل لا يقيم على الخطأ، بل يبادر بتقويم سلوكه وتصحيح خطئه، والتوبة من معصيته، مهما كان ذنبه كبيرًا ومعصيته عظيمة، ومهما تكرَّر منه الذنب، فلا سبيل سوى التوبة والعودة عن الخطأ، «قيل للحسن البصري: ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود ثم يستغفر ثم يعود؟ فقال: ودَّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه -أي باليأس من التوبة والكف عنها- فلا تملُّوا من الاستغفار»[٢].

**يحبُّ الله سبحانه وتعالى أن يَتجاوز عن المسيء كما يحبُّ أن يُحسِن إلى المحسن، وهذا هو مقتضى اسم الله (الغفار)؛ فإنّ الغفار يستدعي مغفورًا، كما أنّ الرزاق يستدعي مرزوقًا**

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣٠٥٨/٥).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٤٧).

## أنواع سلاسل الأخطاء

| | |
|---|---|
| سلسلة الخطأ الشخصية | يقع الفرد في خطأ معين، وبسببه يرتكبُ سلسلة متتابعة من الأخطاء |
| سلسلة الخطأ الجماعية | يقع خطأ من شخص، فيقابله غيره بخطأ آخر، ويأتي آخر بخطأ ثالث وهكذا |
| سلسلة الخطأ الأفقية | يقع الخطأ من شخصٍ أو مجموعة فيتتابع الناس في نفس الزمان والمحيط على الخطأ ذاته |
| سلسلة الخطأ العمودية | ينتقل الخطأ فيها من الجيل للجيل الذي يليه |

### تبرير المعاصي وإضفاء المسوغات:

غالب الذين لا يبادرون إلى التوبة وتصحيح أخطائهم، صنفان:

### الصنف الأول:

يستمرئ المعصية وقد يتلذَّذ بها، ويركن إليها ويعتادها، مع إقراره بأنّها خطأ وذنب ومعصية، لكنّه ضعيف تغلبه نفسه، فلا يقوى على مغالبتها، ولا تُسعفه همَّته على مفارقة رغبات نفسه، فيبقى أسيرًا لهواه، مستسلمًا عاجزًا عن الإقلاع عن أخطائه، إذا ذُكِّر تذكَّر، وإذا وُعظ اتَّعظ، وإذا استُنهض إلى الخير نهض، لكنه إذا خلا بنفسه عاد إلى عادته التي ألفها، وديدنه الذي جرى عليه.

فهؤلاء ترجى لهم الهداية والتوبة، والعودة لجادة الصواب ولو بعد حين، بل لا تُستغرب منهم الأفعال الصالحة العظيمة وإن أقاموا على المعاصي والذنوب، ومن أمثلتهم: أبو محجن

الثقفي رضي الله عنه، الذي تكرَّر حدُّه في شرب الخمر، حتى إذا حضر القادسية أبلى بلاءً حسنًا حتى جعل النَّاسُ يقولون: (هَذَا مَلَكٌ)؛ لما يروْنه يصنع[1].

## الصنف الثاني:

لا يعترف بمعصيته، بل يكابر، ويرفض تخطئة ما يفعله، ويختلق المبرِّرات والمسوِّغات والتفسيرات التي تجعله يبدو مقبولاً، وقد يدعو الآخرين للاقتداء به، ويحارب التغيير وجهود الإصلاح، ويزين فعل الشر لغيره، ويُجرِّئ مَن في قلبه بقية من حياء على اقتحام الموبقات.

فهؤلاء من جنود إبليس، بل يفوقون بمكرهم شياطينَ الجن، هم في الغالب رهطٌ قليل، لكنَّ تأثيرهم يمتدُّ إلى الجمع العظيم، يجدون لكل خطيئة تفسيرًا، ولكل ذنب تبريرًا، إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، وإذا رأوا مَن يترفَّع عن أوحالهم تداعَوا إلى إبعاده وإقصائه، وحجَّتهم في ذلك: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وإذا أقبل الناس على الإيمان صدُّوهم عنه بدعوى مخالفة العادات وأعراف الآباء والأجداد.

**المعصية لا تترك صاحبها، بل تجره إلى مثلها، وتقول: أختي أختي، وإذا لم يبادر صاحب الخطأ إلى التوبة وتكرَّرت منه واعتاد عليها، مع وجود من يزيِّن له هذا الخطأ ويصدُّه عن التوقف عنه، انتقل هذا الخطأ إلى غيره لطبيعة التقليد والمحاكاة التي جُبل عليها الناس**

(١) لما أُخبر سعد بن أبي وقّاص بما فعله أبو محجن قال: «والله لا أضرب اليوم رجلًا أبلى الله المسلمين على يديه ما أبلاهم»، وخلّى سبيله. فقال أبو محجن: «قد كنت أشربها حيث كان يُقام عليّ الحدّ فأُطَهَّر منها، فأمّا إذا بهرجتني [أي: أهدرتني بإسقاط الحدّ عني] فلا والله لا أشربها أبدًا». مصنف ابن أبي شيبة، رقم (٣٣٧٤٦).

## عدم التوبة إيذان بمزيد من المعاصي:

حذَّر النبي ﷺ من تكرار الذنوب والخطايا دون توبة، وبين خطورة ذلك على القلب، فقال: (إنَّ المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتةٌ سوداء في قلبه. فإن تاب ونَزَع واستغفر صُقِل منها، وإن زاد زادت حتى يغلف بها قلبه، فذلك الرَّان الذي ذكر الله في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾)[1].

وبيَّن أهل العلم آثار المعاصي على صاحبها، كظلمة القلب، وهوان صاحب المعاصي على الله وعلى نفسه وعلى الناس، وحرمانه من العلم والرزق، والوحشة والضيق في النفس، إلى غيرها مما لا يتسع له المقام[2]، والمعصية لا تترك صاحبها، بل تجرُّه إلى مثلها، وتقول: أختي أختي، وإذا لم يبادر صاحب الخطأ إلى التوبة وتكرَّرت منه واعتاد عليها، مع وجود من يزيِّن له هذا الخطأ ويصدُّه عن التوقف عنه، انتقل هذا الخطأ إلى غيره لطبيعة التقليد والمحاكاة التي جُبل عليها الناس، والأسوأ من هذا كلِّه أن يستمرئ الناس وقوع الخطأ، ويفقدوا حساسيتهم منه وإنكارهم له.

وإذا انتشرت المعصية والسلوك الخاطئ وقلَّ مُنكروها: انتقلت من فردٍ إلى فرد، ومن بيئةٍ إلى بيئة، ومن جيلٍ إلى جيل، وصارت سلسلةً متتابعة من الأخطاء، وهذا يصنع نوعًا من التطبيع مع المعصية، ويُصعِّب معالجتها كثيرًا، وقد تتسبَّب هذه السلوكيات فيما لا يحمد عقباه كما أهلكت الأمم الظالمة والمجتمعات الفاسقة من قبل.

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤) وصحَّحه، وابن ماجه (٤٢٤٤) وابن حبان في صحيحه (٢٩٠٦) والنسائي في الكبرى (١٠١٧٩).

(٢) أفرد ابن القيم فصولًا في كتابه (الداء والدواء) لبيان أضرار المعاصي على العبد في دينه ودنياه وآخرته.

## تسلسل المعاصي والأخطاء:

المعاصي - ومثلها الأخطاء والأغلاط الاجتماعية والسلوكية -، عند تكرارها وتسلسلها تحدث أثرًا سلبيًا متشابهًا من الفرقة والخلاف، والاستنزاف النفسي والاجتماعي، وقد قام الأنبياء وبعدهم المصلحون بمحاربتها ومحاولة القضاء عليها على السواء، وحتى نفككها ونضع حدًا لتسلسلها، يمكننا تقسيمها إلى أنواع متعددة، ولكل منها خصائص وميزات، على النحو الآتي:

### ١. سلسلة الخطأ الشخصية:

تسلسل الأخطاء هنا يكون على النطاق الفردي، حيث يقع الفرد في مشكلةٍ معينة، وبسبب هذا الخطأ يرتكبُ سلسلة متتابعة من الأخطاء، ومن أمثلته:

» **الإدمان:**

ابتلينا في زماننا هذا بأنواع من العادات التي تتحكَّم بصاحبها فتضعف إرادته وتأسره حتى تكاد تقضي عليه، وعلى رأسها التدخين، فيبدأ الأمرُ بدعوةٍ من صديق، فيجربه الشابُّ مع علمه بحال المدمنين، لكنه يظن أنَّه قادرٌ على الترك وقت ما شاء، وهكذا يلتفُّ حبل الإدمان حول عنقه شيئًا فشيئًا حتى يدخل في نفقٍ مظلم، وترافقه سلسلة الخطأ بقية عمره.

وهذا الأمر ينطبق على بقية الإدمانات كإدمان الألعاب الإلكترونية والشبكات الاجتماعية والمواد الإباحية وغيرها، ومما تجره هذه الإدمانات بأنواعها: تشكّل الشخصية الانطوائية للمدمن، وجنوحه للكذب، إضافة إلى قلّة الإنتاجية، وتضييع المال والوقت، ناهيك عن الأضرار الصحية والاجتماعية، والأسوأ من ذلك هو الوقوع في التبرير وتصحيح الفعل، كمن يدَّعي أن التدخين ليس فعلاً خاطئًا، مما يجعله أسيرًا لإدمانه بإرادته واختياره، فيكون الإدمان سلسلة خطأ في ذاته، ويؤدي لغيره من الأخطاء والمصائب.

**تسلسل الأخطاء قد يكون على النطاق الفردي، حيث يقع الفرد في مشكلةٍ معينة، وبسبب هذا الخطأ يرتكبُ سلسلةً متتابعةً من الأخطاء، وقد يكون على النطاق الجماعي فيعالج أحدهم خطأ غيره بخطأ أكبر منه، ويأتي من يقابل هذا الخطأ بخطأ آخَر، وهكذا**

## « الدَّين:

قد يستدينُّ الرجلُ لحاجةٍ عابرة (قد تكون حقيقية)، ثم لا يستعدُّ لموعد السداد كما ينبغي، بأن يتغافلَ عن اقترابه، أو لا يخطط له بشكل صحيح، فيجد نفسه غير جاهز للسداد، فيلجأ لدَينٍ آخر ليُسدِّد هذا الدَّين، ولأنَّ إدارته للمال ليست سليمة، ومن طبيعة مصاريف الحياة أن تزداد؛ فهو في الغالب سيقترض مبلغًا أكبر، وشيئًا فشيئًا سيجد نفسه تحت وطأة مبلغٍ كبيرٍ يفوق طاقته على السداد لسنوات.

والدَّينُ لا يعدُّ خطأً بحدِّ ذاته، لكنَّه مشروط بوجود الحاجة الملحّة أو الضرورة، والقدرةِ على السداد في غالب الظنِّ، فقد ترك النبيُّ ﷺ الصلاةَ على مَن مات وعليه ديناران! حتى تكفَّل بسدادهما أبو قتادة رضي الله عنه، فلما رآه من الغد وقال له: قد قضيتُها، قال ﷺ: (الآنَ بَرَدَتْ عليهِ جِلدهُ)[1]، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفي هذا الحديث إشعار بصعوبة أمر الدَّين وأنّه لا ينبغي تحمله إلا من ضرورة»[2].

والحديث عن الخطأ في الدَّين هنا لا يشمل المضطر. إنّما الكلام عمّن يستدين لغير ضرورةٍ بل لأدنى حاجة، ومع وجود

(١) أخرجه أحمد (١٤٥٣٦).
(٢) فتح الباري (٤/٤٦٨).

سوءٍ في الإدارة المالية؛ مما يجعله خطأً فادحًا، والنبيُّ ﷺ كان يدعو في الصلاة: (اللَّهم إنِي أعوذ بك من المأثَم والمغرَم). فقال له قائل: ما أَكثَرَ ما تَسْتَعِيذُ من المَغْرَمِ! فقال: (إِنَّ الرَّجُلَ إذا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ)[1]، ولاحظ هنا كيف وضَّح النبي ﷺ تسلسل الأخطاء الناتجة عن الدَّين.

## ٢. سلسلة الخطأ الجماعية:

يُحكى أنَّ شيطانين مرَّا بقريةٍ فاستأذن أحدهما في الدخول إلى القرية، فسأله صاحبه: ماذا ستفعل؟ قال أعود سريعًا، فدخل أول دارٍ أمامه، فوجد امرأةً تحلبُ البقرة، وصغيرُها مربوط بحبلٍ وهو يشدُّ نفسَه يريد أن يرضع من أمه، فذهب الشيطان إلى العجل الصغير وأفلت الحبل وتركه يهجم على حليب الأم، فضرب برجله وعاءَ الحليب وسكبه على الأرض، فغضبت المرأة وأخذت عصًا فضربت العجلَ على رأسه فماتَ من الضربة، فرآها زوجُها وهي تَقتل العجلَ فغضب غضبًا شديدًا وضربها بذات العصا على رأسها فماتت أيضًا، فسمع أهل الزوجة أن زوجها قد قتلها، فهجموا على الرجل وقتلوه، فقام أهل الرجل وهجموا على أهل المرأة، واقتتل الحي قتالاً شديدًا، فَعَلَت الأصوات وارتفع الصُّراخ وحصل قتلٌ وجرحٌ كثير، وعندما رأى الشيطان الذي ينتظرُ ما يحصلُ في القرية سأل صاحبه: ماذا فعلت؟ فقال لم أفعل شيئًا! أفلتُّ العجل من الحبل فحسب!

هذه القصة الرمزية توضح المقصود بسلسلة الخطأ الجماعية خير توضيح، فالرجل قابل خطأ المرأة بخطأ أكبر منه، وكذلك فَعَل أهلُ المرأة، ثم أهل الرجل. ولو تعقَّل أحدُ الأطراف لأمكن إيقاف الكارثة والحدُّ من الخسائر.

(١) أخرجه البخاري (٨٣٢) ومسلم (٥٨٩)، غَرِم أي: استدان.

وهي وإن كانت خيالية فأمثالها وأشباهها من الأحداث مُشاهدٌ وواقع؛ فهذه حربُ البَسُوس بدأت بقتل ناقة، وقامت على إثرها حربٌ طويلةٌ مكوَّنة من ٦ معارك كبيرة، دامت حوالي ٤٠ عامًا بحسب بعض المصادر، وكادت أن تفني قبيلتي بكر وتغلب ابنَي وائل[١].

وفي عصرنا الحاضر: تتمثّل في الحرب العالمية الأولى التي بدأت باغتيال ولي عهد امبراطورية النمسا، وحشد فيها ٧٠ مليون جندي، وخلَّفت ما يزيد عن ١٦ مليون قتيل نتيجة الحرب، وتسببت في وفاة ما بين ٥٠ إلى ١٠٠ مليون إنسان لأسباب غير مباشرة في أنحاء العالم[٢].

ولها واقع على المستوى المنزلي اليومي، فما أكثر ما يسكب طفلٌ شيئًا أو يكسر وعاءً دون قصد، فيُعاقب بالضرب من قبل أمِّه أو أبيه، فيغضبُ الآخر، وينشبُ خلافٌ قد ينتهي بانفصال الزوجين وهدم بيت الزوجية. ومن أمثلتها: ما يسمى بجرائم الشرف، وشجارات حوادث السير وغيرها.

### ٣. سلسلة الخطأ الأفقية:

حيث يقع الخطأ من شخصٍ أو مجموعة فيتتابع الناس في نفس الزمان والمحيط على الخطأ ذاته، ومن أبرز أمثلته: نقل الكلام، إذ يطَّلع أحدهم على معلومة ذات خصوصية، فينقلها لصاحبه، وصاحبه يسرِّبها لغيره، وذلك لزوجته، حتى تتفاجأ بأنَّ الخصوصية التي تحرص على كتمها ليست إلا مضغةً في أفواه الناس.

ومثله: التباهي بالتصوير على الشبكات الاجتماعية الذي يكون في بدايته للحصول على بعض الثناء، ثم ينتقل للتباهي

(١) تاريخ العرب القديم، لتوفيق برو، ص (٢١٤) وما بعدها.
(٢) موسوعة ويكيبيديا.

والتفاخر، ثم يتطوَّر للمنافسة في مختلف شؤون الحياة، ولا يخفى ما يسبِّبه ذلك من تحاسُدٍ وتباغُضٍ وتكاليفَ مُرهقة.

وكذلك مبالغات الزواجات، ومتابعة آخر صرعات الموضة في الأزياء وقصات الشعر وغيرها، ومعظم العادات السيئة والأخطاء تنتقل بهذه الطريقة.

## ٤. سلسلة الخطأ العمودية:

وفيها ينتقل الخطأ من الجيل للجيل الذي يليه، ومن أمثلته التساهل في الحجاب، فأنت ترى النساء اللاتي تربَّين على قيمة الحجاب بمعناه الشامل، ينقُلن ذلك لبناتهنَّ، وترى بالمقابل البنات اللاتي تربَّين على التساهل في الحجاب وآداب الاحتشام ينقلن ذلك التساهل لبناتهنَّ بوعي أو بغيره، وهكذا جيلاً بعد جيل، إلا أن يصلُحَ حال إحدى النِّساء فتكسرَ هذه السلسلة، وتربيَ بناتها على الحجاب والاحتشام.

ومن الأمثلة: تحديد النسل والاكتفاء بطفلٍ أو طفلين، فالطفل الذي لديه إخوة كثر، أقل عرضة لتحديد النسل عندما يكبر من الطفل الوحيد لدى والديه، وهذه العادة الخاطئة بالرغم من انتقالها الأفقي الملحوظ إلا أنَّها تنتقل بفاعلية أكبر على النطاق العمودي بسبب تأثير النموذج الأبوي فيه.

ومن الأمثلة المشهورة لهذا النوع: حرمان المرأة من الميراث، والقسوة في تربية الأبناء، بل كانت عبادة الأصنام هي المثال الأبرز في القرآن الكريم على هذا النوع من السلاسل، يتبيَّن ذلك من جواب الكفار على دعوة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

**ينبغي على كل أحد أن يفكر في كيفية منع تسلسل الخطأ، لأنَنا جميعًا معرَّضون له إما بتلقي المعتقدات والسلوكات الخاطئة عبر الأجيال السابقة، أو بالمحاكاة والتقليد لمن يُحيطون بنا، أو بالتورُّط في العادات السيئة وإدمانها، أو بمعالجة الأخطاء بأخطاءٍ أكبرَ منها، على المستوى الشخصي والأسري والجماعي**

## أساليب متعددة للعلاج:

بعد هذا الاستعراض لسلاسل الأخطاء، يتبادر إلى الذهن تساؤل حول العمل لمنع تسلسل الخطأ، أو لكسر السلسلة، والحقُّ أنّ هذا مما ينبغي أن يفكر فيه كلُّ أحد، لأنَنا جميعًا معرَّضون لتسلسل الخطأ إما بتلقي المعتقدات والسلوكات الخاطئة عبر الأجيال السابقة، أو بالمحاكاة والتقليد لمن يُحيطون بنا، أو على صعيد التورُّط في العادات السيئة وإدمانها، أو بمعالجة الأخطاء بأخطاءٍ أكبرَ منها، على المستوى الشخصي والأسري والجماعي.

وثمة نصائحُ متعدِّدة لمنع التسلسل الخاطئ أو لمعالجته، منها ما يتعلَّق بمعالجة العادة المحورية التي بإصلاحها تنصلح كثيرٌ من الأمور[1]، ومنها ما يتعلَّق بتقوية الإرادة ومقاومة المغريات ورغبات النفس وعلاج الإدمان عند من ابتلي به، ومنها ما يتعلَّق بتعزيز الإيمان بالآخرة وتدبُّر الحساب والجزاء في الآخرة، وتعظيم الله في القلب، ومراقبةِ النفس في الخلوات، ومنها كذلك النظَرُ في عواقب الأمور ومآلاتِ الأفعال وأسبابِ ما

(١) مقطع مرئي بعنوان: (العادة المحورية، أقصر طريق لتغيير العادات)، للدكتور وائل الشيخ أمين.

نحن فيه من تأخُّرٍ حضاري بين الأمم، ومنها قيام المصلحين والعقلاء بتدخُّلاتٍ كاسرةٍ لسلاسل الأخطاء وكابحةٍ لسفاهات الجاهلين، بعلمهم وجاههم وأموالهم وأوقاتهم ورياستهم ومكانتهم.

**التوبة تفعل في نفس المخطئ فعلاً عجيبًا، لأنَّ تقدير المخطئ لنفسه يقلُّ عند وقوع الخطأ، فيصبحُ أكثر عرضةً للانزواء والوقوع في أخطاء أخرى، خجلاً وحياءً، لكن عند إحداث التوبةِ يزولُ ذلك كلّه، ويصفو القلب ويعود قادرًا على مواجهة الناس وتحمُّل واجبات الحياة**

## خاتمة ووصفة ربانية:

توجد وصفةٌ ربانيةٌ تصلح لجميع الناس، لها تأثير إيجابي على صاحبها، وتخفف من تسلسل الخطأ بإذن الله، ويستطيع كلُّ أحدٍ فعلها، تتمثَّل في خطوتين:

### » الخطوة الأولى - التوبة من الخطأ:

والتوبة تعني الإقلاعَ الفوريَّ عن الذنب والخطأ، والندمَ على فعله والتأسُّفَ على وقوعه، والعزمَ على عدم العودة إليه مستقبلاً، وتقتضي إصلاحَ تبعات هذا الخطأ وتحملَ نتائجه من حقوق وتكاليف. وما أجمل أن تكون هذه التوبة بكلمات تفيض بالاعتراف بالذنب وبربوبية الله ونعمته وتجديد العهد معه، وهذه المعاني تجمعُها صيغة سيد الاستغفار: (اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتك علي،

وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[1]، والله تعالى علم آدم ماذا يقول في توبته ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

والتوبة تفعل في نفس المخطئ فعلاً عجيبًا، لأنَّ تقدير المخطئ لنفسه يقلُّ عند وقوع الخطأ، فيصبحُ أكثر عرضةً للانزواء والوقوع في أخطاء أخرى، لكن عند إحداث التوبةِ يزولُ ذلك كلّه، ويصفو القلب ويعود قادرًا على مواجهة الناس وتحمُّل واجبات الحياة.

## » الخطوة الثانية - تقديم عمل صالح:

وهذا مهمٌّ جدًّا لاستعادة ثقة المخطئ بنفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ولعلها تذهب آثارها أيضًا، وقال ﷺ: (وأتبع السيئة الحسنة تمحُها)[2]، وهذا السلوك يلغي التسلسل الخاطئ، فبدلاً من مواجهة الخطأ بخطأ آخر يقدم المرء عملاً صالحًا فتنكسر سلسلة الخطأ، والعمل الصالح يشمل الأعمال التعبدية وغيرها مما فيه نفع لعباد الله، وقد تكرَّر في القرآن الكريم ذكر الصلاح بعد التوبة، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ [النور: ٥]. ومعنى وأصلحوا: «أصلحوا العمل»[3].

وإذا قام كل منا بهذه الوصفة فلا شكَّ أنَّ حالنا سيتحسَّن كثيرًا على مختلف المستويات، والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).
(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧).
(٣) تفسير القرطبي (١٨٢/١٢).

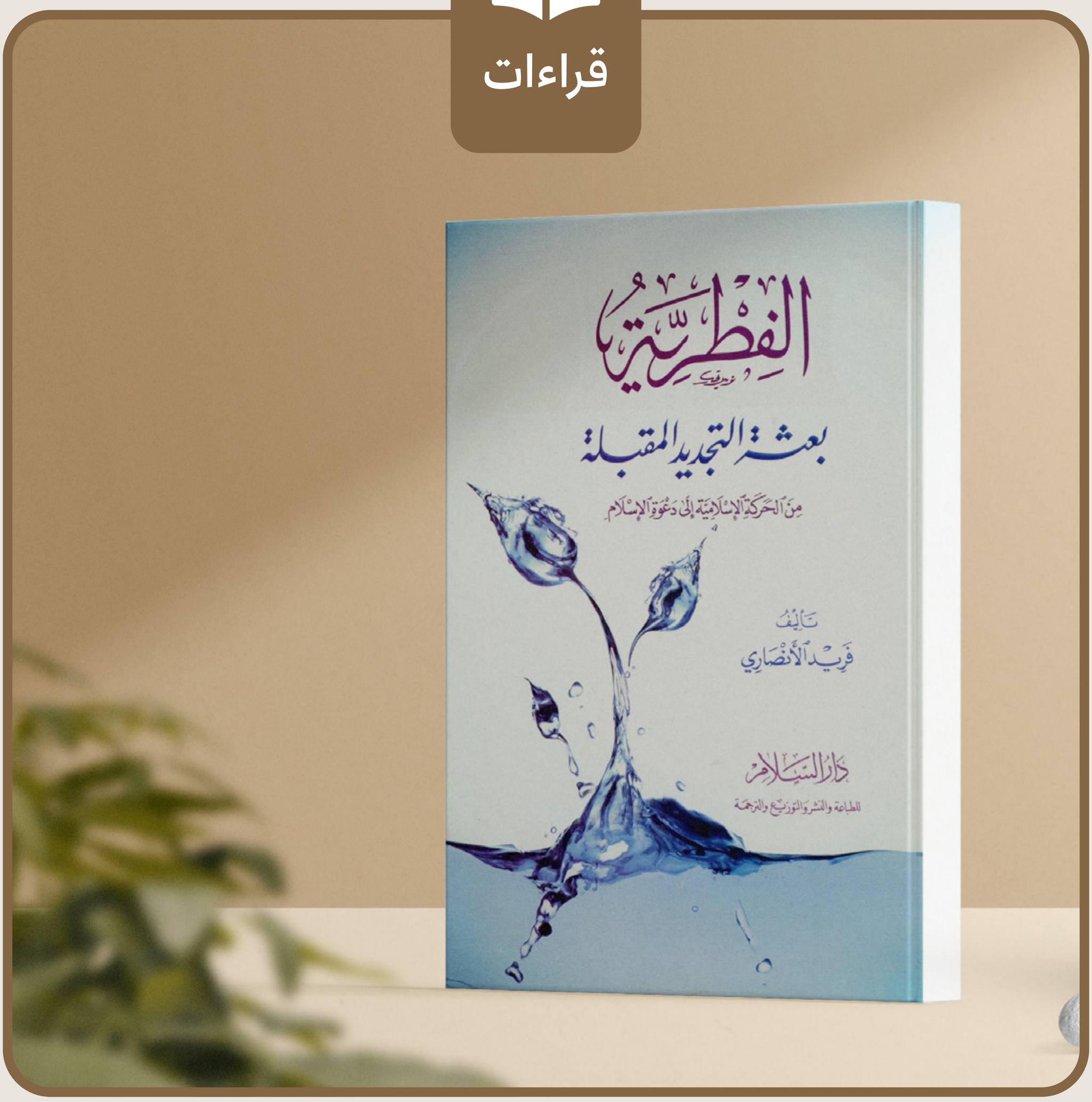


# قراءة في كتاب: «الفطرية بعثة التجديد المقبلة» للدكتور فريد الأنصاري

أ. أحمد أرسلان
مدوِّن، ومتخصص في صناعة المحتوى والإنتاج الإعلامي

**تميز العصر الحالي بظهور الجماعات والحركات الإسلامية التي حملت على عاتقها الدعوة إلى الله وحمل المشروع الإسلامي، وبعد سنوات من العمل والجهد كان لا بد من نقد مسيرة هذه الحركات وإعادة النظر بالجوانب التي تحتاج إلى مراجعة، وهو ما جاء به هذا الكتاب في تقرير (الفطرية) منهاجًا دعويًا، ساعيًا لاسترداد دور الوحي التربوي والاجتماعي في النفس والمجتمع، وقد عُرف مؤلفه الداعية والمربي الدكتور فريد الأنصاري بالمنهج القرآني وأنه رائد مشروع (مجالس القرآن)**

## المؤلف:

الدكتور فريد الأنصاري، عالم وأديب مغربي، ولد بإقليم الراشيدية، بالمغرب عام (١٣٨٠هـ-١٩٦٠م). حصل على الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، عمل رئيسًا لقسم الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بجامعة مولاي إسماعيل بمكناس في المغرب. وأستاذًا لأصول الفقه ومقاصد الشريعة بالجامعة نفسها، شغل منصب عضو في المجلس العلمي الأعلى بالمغرب. توفي بعد صراع مع المرض دام عدة سنوات في تركيا / عام (١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م)، ونقل إلى مدينة مكناس، حيث دفن بمقبرة الزيتون.

## وصف الكتاب:

الكتاب من إصدار دار السلام للطباعة والنشر، يقع في ٢٥٨ صفحة، وصدرت الطبعة الثانية منه عام ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

## قضية الكتاب:

### راجعة إلى إثبات أمرين:

١. **أولهما:** أنّ طبيعة التدافع الحضاري بين الأمة وخصومها دخل مرحلة تدمير الفطرة الإنسانية، بما يعرضها للابتلاع العولمي الجديد في دينها وأخلاقها وقيمها الحضارية،

وسائر جوانب عيشها على الإجمال! بما لم يمر مثله في التاريخ بهذا الشمول!

٢. **ثانيهما:** أنّ العمل الإسلامي المعاصر لن يمكنه الاستجابة لهذا التحدي الحضاري الجديد إلا بتجديد نفسه، وذلك بالرجوع إلى فطرته في الدين والدعوة؛ لأنّ الفطرة المسلوبة أو المخرومة لن تعالج وتسترجع إلا بمنهاج فطري.

وقد جاء هذا الكتاب برؤية متميزة في فقه الدعوة الإسلامية، تتضمن تأصيلات منهاجية، نظرية وتطبيقية؛ موجهة للقرّاء عامّة، ولأهل الشأن الدعوي خاصّة.

> **العمل الإسلامي المعاصر لن يمكنه الاستجابة للتحديات الحضارية الجديدة إلا بتجديد نفسه، وذلك بالرجوع إلى فطرته في الدين والدعوة؛ لأنّ الفطرة المسلوبة أو المخرومة لن تعالج وتسترجع إلا بمنهاج فطري**

## ينقسم الكتاب إلى:

- تمهيد: وهو في بناء سبع (مقدمات منهجية) تمهّد لقضايا الكتاب.
- الفصل الأول: (الفطرية مدخل إلى تأسيس القضية) وفيه مبحثان: (بعثة التجديد) دراسة في المفهوم و(الفطرية نقلة نوعية: من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام).
- الفصل الثاني: (الفطرية: القضية والمفهوم) وفيه مبحثان: (الفطرية وقضية الدين) و(الفطرية دراسة في الأركان والمسالك).

» الفصل الثالث: (التجديد الفطري: معالمه المنهجية وقضاياه العمرانية) وفيه مبحثان: (المعالم المنهجية للتجديد الفطري) و(التجديد الفطري وقضايا العمران البشري).

» وأما الملحق فهو: (برنامج الربانية من الكلمات إلى الرسالات).

» وفي الأخير وضع المؤلف خاتمة عامّة، ترجع على ما سبق باستخلاص نتائج وخلاصات للعمل.

## عرض الكتاب:

### التمهيد/ المقدمة الأولى: بين يدي هذا الزمان:

منذ سقوط الاتحاد السوفياتي، وسقوط سور برلين بدلالاته العميقة، حتى أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م بأمريكا، تجمعت موجة أخرى من تاريخ التدافع الحضاري، لتنطلق بأكبر عملية احتلال عسكري في القرن الخامس عشر الهجري (الحادي والعشرين الميلادي)! ويدخل الغربُ العالمَ الإسلاميَّ -بقيادة أمريكية- غازيًا بلا قناع سياسي! فتكون العراق أكبر قنطرة للعبور إلى غزو عالمي جديدٍ للأمة الإسلامية، بتجليات متعددة، قد تختلف مظاهرها من قُطر إلى قُطر.

وهذا بلا شك هو من نتائج أزمة ضعف الوجود المعنوي للأمة الذي صار اليوم إلى ما يشبه الفقدان، وهو ما شخصه النبي ﷺ بقوله: (حب الدنيا وكراهية الموت)، ومعناه فقدان الثقة بالله، وضعف الارتباط بأصول الدين إيمانًا وعملاً.

### المقدمة الثانية: بين يدي هذا المشروع من (الحركة) إلى (الدعوة):

قال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٢٩-٣٠].

ولأن الفطرة تعود بالعموم إلى الطبيعة الأولى، وإلى الهيئة الأصلية التي كانت للأشياء قبل خضوعها للتغيير والتبديل، فإنّ الحاجة ملحّة اليوم للعودة بالعمل الإسلامي إلى ذلك.

لقد أتى على العمل الإسلامي حين من الدهر يدور في حلقة مفرغة بسبب الأزمة الحاصلة في تصوره ومنهاجه. وإنّ للقاموس الاصطلاحي المفهومي دلالة على طبيعة تلك الأزمة؛ فمصطلح (الحركة) يحمل من الخلفيات غير الإسلامية ما كان له الأثر البالغ على توجهات التنظيمات الإسلامية المعاصرة، وعلى ميزان أولوياتها. والألفاظُ ليست بريئة من الخلفيات الحضارية والمذهبية، ولا استعمالُها بالأمر الهين في أمور الثقافات والعلوم عمومًا، وفي أمور الدين خاصة.

**الألفاظُ والمصطلحات ليست بريئة من الخلفيات الحضارية والمذهبية، واستعمالُها ليس بالأمر الهيِّن في أمور الثقافات والعلوم عمومًا، وفي أمور الدين خاصة، لذلك لا بد من الحذر الشديد في اختيارها تجنبًا للتبعات السلبية للمصطلحات الدخيلة**

وإنما فطرة العمل الإسلامي أنّه (دعوة) لا (حركة) وبين هذا وذاك فرق كبير؛ فمصطلح (الدعوة) لفظ قرآني أصيل، ومصطلح (الحركة) لفظ سياسي دخيل، وإنما سمى الله جل وعلا تجديد الدين ووظيفة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في كتابه وسنه نبيه ﷺ (دعوة)، وما كان ينبغي العدول عما سمى الله به مفاهيم الدين إلى غيره من عبارات المحدثين؛ لأنّه سبحانه أدرى بمراده من دينه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

و(الدعوة) هي عين المصطلح المستعمل في البيانات النبوية باطراد تام، ثم في استعمال السلف الصالح بعد ذلك، وهو التركيب الاصطلاحي المستعمل عند أهل الحديث كما في صحيح مسلم وغيره.

ونحسب أن مصطلح (الدعوة) قد ناله من التحريف المفهومي والتجزيء الدلالي، بحيث جعله مقصورًا لدى كثير من المستعملين له اليوم في الحقل الإسلامي الاصطلاحي، على معنى (الوعظ) بمفهومه الخطابي ليس إلا. ونحسب أنّ من مهام (الفطرية) إعادة الاعتبار لألفاظ القرآن الكريم، وللمصطلحات الشرعية عمومًا، بتجديد استعمالها بمفاهيمها الأصلية، كما في الكتاب والسنة.

## المقدمة الثالثة: النص الشرعي بين (الحركة الإسلامية) وبين (دعوة الإسلام)!:

الفطرة هي الدين، والدين وحي من الله، وما الوحي إلا نص من كتاب الله أو نص من سنة رسول الله ﷺ، فآل أمر الدين كل الدين إلى أنه نص، وهنا يظهر الفرق جليًّا بين (الحركة الإسلامية) وبين (دعوة الإسلام) فالحركة الإسلامية تشتغل حول النص، بينما دعوة الإسلام تشتغل بالنص وفي النص، عملها مرتكز أساسًا على التعامل المباشر مع الوحي، تخلّقًا بأخلاقه وتحقّقًا بأحكامه وحِكمه، ودعوة الناس إلى الدخول في فلكه واستثمار مقاصده.

فالنصّ في الأولى شعار، وفي الثانية مدار، والاشتغال (حول النص) قد يوهم أنّه عمل بالنص وفي النص، بينما هو في الحقيقة مجرد رسم لأهداف إسلامية، لكن بسعي فكري وكسب بشري محض لا علاقة له بالنص، بل هو -من حيث منهجيته الحركية- خارج إطار النص.

## المقدمة الرابعة: الإنسان هو القضية:

الإنسان هو القضية، وهو مجال الاستثمار الرئيس للدين، وقضيته الكبرى دائرة بين أمرين اثنين: إمّا أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون متمرّدًا عليه جلّ في علاه، سواء في ذلك إيمانه وعقيدته، أو عبادته وكسبه، أو تشريعه وقوانينه، أو علاقته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. إلخ، فالاستثمار الدعوي في الإنسان كفيل -إذا استقامت الوسائل طبيعةً وفقهًا- بضمان ذلك كلّه، وذلك هو المنهج الفطري.

> **الإنسان هو القضية، وهو مجال الاستثمار الرئيس للدين، والإنسان إمّا أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون متمرّدًا عليه جلّ في علاه، في إيمانه وعقيدته، وعبادته وكسبه، وتشريعه وقوانينه، وسائر أموره، فالاستثمار الدعوي في الإنسان كفيل بضمان ذلك كلّه، وذلك هو المنهج الفطري**

## المقدمة الخامسة: فى ولاية الله وتدبير الشأن الدعوى:

تقرر في القرآن أنّ الله تعالى إذا أخلص له عباده تولّاهم ونصرهم، ومكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وإلّا فلا، مهما خاضوا في عجيج السياسات وانخرطوا في ضجيج النقابات! ولايةُ الله بابُ الخروج الأوحد بالعمل الإسلامي من أزمته، وبابُ الوصول به إلى غايته، وما زاده العدول عن هذه الوجهة إلا خبالاً.

ومن هنا يتبيّن أنّ نجاح العمل الإسلامي رهين -أولاً- بمراقبة قصد الله في التفكير والتدبير، ومشروط بتحرّي مراده تعالى

من عباده في علاقتهم به تعالى وبدينه، ثم مراعاة أولويات الشريعة -كما عرضتها نصوص القرآن والسنة- قبل أولويات السياسة، وجعل هذه محكومة بتلك في الدعوة والعمل، إلا ما استثناه الدليل واقتضاه الفقه السليم للدين.

فإذا حصل ذلك على الإجمال؛ تبينت قاعدة مهمة جدًا في فقه الدعوة، وهي من القواعد الكبرى في الإسلام: أنّ تدبير شأن الدعوة في الأرض إنما هو من شؤون الربوبية، لا قيادة للإنسان فيه -على الحقيقة- ولا ريادة، وإنما المؤمن فيه جندي من جنود الله، وعبد من عباده!

> **نجاح العمل الإسلامي رهين -أولاً- بمراقبة قصد الله في التفكير والتدبير، ومشروط بتحرّي مراده تعالى من عباده في علاقتهم به تعالى وبدينه، ثم مراعاة أولويات الشريعة كما عرضتها نصوص الوحيين قبل أولويات السياسة، وجعل هذه محكومة بتلك في الدعوة والعمل**

## المقدمة السادسة: في السياسة والقصص الإسلامي المعاصر:

صحيح أنّ الرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة فيه الغُنية والكفاية، لكن القرآن علّمنا أن التجربة الواقعية مهمة جدًا في تمحيص الدعوة؛ لما تتيحه للمراقب الحصيف من النظر في طبيعة النجاح والإخفاق عند تحقيق مناط المفاهيم والأحكام في مجال الدين عمومًا ومجال الدعوة إليه خصوصًا؛ ولهذا قصّ القرآن القصص.

## المقدمة السابعة: في أقسام مشروع الفطرية:

وهو قائم على ثلاث مجموعات: الأولى: في منهج تجديد العلم ومفهوم العالم، والمجموعة الثانية: في التأصيل النظري للعمل الدعوي، والمجموعة الثالثة: في مجالس القرآن وتلقي رسالاته[1].

> **الحركة الإسلامية -بصورتها التقليدية هذه- محكومة بسنن الاجتماع البشري تمامًا كالحضارات والدول بالمفهوم الخلدوني، أي أن لها مرحلة نشأة، ثم نضج اكتمال، ثم هرم وانهيار**

## الفصل الأول: الفطرية مدخل إلى تأسيس القضية:

### * المبحث الأول: (بعثة التجديد) دراسة في المفهوم:

يرد مفهوم (البعث) في القرآن والسنة بمعنيين: إحياء الأموات، وما فيه من تجديد الحياة، والإرسال. وهو تكليف الرسل بوظيفة البلاغ.

وعندما بشّر النبي ﷺ بأنّ الله سيرسل للأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها، فالمقصود كلا البعثين: إحياءُ الأمّة ونفخٌ لروح القرآن فيها حتى تعود إليها الحياة وتنخرط من جديد في صناعة التاريخ، وإعادة الإرسال فيها لكن عن طريق العلماء لا الأنبياء. وقد يكون المجددون أفرادًا أو مجموعة من الأشخاص.

(١) سلسلة (من القرآن إلى العمران)، د. فريد الأنصاري

## أركان منهج الفطرية

| | |
|---|---|
| الإخلاص مجاهدة | الإخلاص حقيقة إيمانية، وخلق قرآني لا ينال إلا بالمجاهدة |
| الآخرة غايةً | وهي ميزان الداعية لتقويم صفاء دينه، وضبط بوصلة مسار دعوته |
| القرآن مدرسةً | وهو الصبغة العامة للفطرية، ولا إمكان لإصلاح الفطرة إلا بالقرآن |
| الربانية برنامجًا | أحد المسالك التربوية الرئيسة الهادفة إلى تخريج الدعاة المربين |
| العلم طريقةً | راجع إلى كون العلوم الشرعية هي المسلك الأساس لبناء العلم بالله وبدينه |
| الحكمة صبغةً | صمام الأمان لسير العمل الدعوي، وغيابها سبب رئيس في هلاك الدعوات |

ولا معنى للتمسك بالقول بكون المجدد فردًا بعينه، ولا يصح كذلك التفسير الحرفي لـ(رأس المئة) من كل قرن بسنة محددة، لأن حركة التاريخ هي نتاج عمر كامل، وإنما قد تبرز ثمارها بشكل واضح مع مطلع هذه السنة بالتحديد أو تلك.

### * المبحث الثاني: الفطرية نقلة نوعية من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام:

أول سؤال يوضع في هذا السياق هو: هل استنفدت (الحركة الإسلامية) أغراضها؟

لا خلاف في أن (الحركة الإسلامية) تعمل من أجل الدين على الإجمال. لكن هذا إنما هو من حيث الطبيعة العامة المتصفة بها، والرغبة الوجدانية الكامنة فيها. وأما من حيث الصيغة المنهجية فهي مظهر (حزبي) بالمعنى السياسي الغربي الحديث

للمصطلح، بغض النظر عن المشاركة الفعلية بالانتخابات أو ما يسمى «اللعبة السياسية»، ويمكن أن تتجلى هذه الحزبية -على مستوى الشكل- في عدة صور اصطلاحية، مثل مصطلح (جماعة)، أو (حركة)، أو (تنظيم)، أو (منظمة)، لكنه يرجع في النهاية إلى جوهر واحد.

ومن هنا يمكن أن نميز في الحركة الإسلامية بين شيئين: المظهر والمنهج.

فالمظهر: إسلامي على الإجمال.

أما المنهج: فمن الصعوبة نفي التأثر بالأطروحة السياسية بمعناها العلماني، وبردود الأفعال المنهجية في مواجهة الأحزاب السياسية المعاصرة، على سبيل الإجمال كذلك.

وهذا في نهاية المطاف لا ينتج مجتمعًا مجددًا بقدر ما ينتج صورة ظلية لذلك المجتمع.

وهكذا تكون (الحركة الإسلامية) عملاً محدودًا بحدود اجتهادية وتنظيمية وبشرية. إنها تصور بشري وضعي ذو أصول علمانية، لمنهج العمل في ترجمة قيم الدين ومقاصده، وهما أمران لا يجتمعان، ومن هنا لابست الإسلام وفارقته في آن واحد، فقد لابسته في (الانتساب) على مستوى القصد العام وتجلياته، وعلى مستوى الشعارات والبرامج العامة، وفارقته في (النسبة) على مستوى المنهاج في أساليب العمل والإصلاح.

وربما كان لهذه الظاهرة مبرر وجود في مرحلة سابقة، مرحلة الدعاية الإسلامية وإعلاء الشعار، مما أنتجته بعثة التجديد السابقة، بيد أن المعركة الحضارية الجديدة قد تجاوزته بتحدياتها العميقة وأسلحتها الفتاكة الجديدة، التي تمس مفهوم الإنسان وفطرته، وتدمر نسيجه الاجتماعي

وخصائصه الحضارية، مما تفرضه اليوم العولمة في صورتها الشمولية الجديدة.

وإذا كان كذلك فإن الحركة الإسلامية -بصورتها التقليدية هذه- محكومة بسنن الاجتماع البشري تمامًا كالحضارات والدول بالمفهوم الخلدوني، أي أن لها مرحلة نشأة، ثم نضج اكتمال، ثم هرم وانهيار.

**الفطرية عملية إصلاحية وجدانية، تقوم على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان، المجبول أصلاً على إخلاص التوحيد، وإصلاح ما أصابها من تشوّهات تصورية وسلوكية في شتّى امتداداتها العمرانية**

## الفصل الثاني: في الفطرية (القضية والمفهوم):

### * المبحث الأول: الفطرية وقضية الدين:

عندما تضطرب المفاهيم وتختلف التصورات بين المشتغلين في المجال الواحد أو ربما تتناقض، نكون مضطرين إلى العودة إلى المنطلقات الأولى للمجال الذي نشتغل فيه، لإعادة تجديد السؤال حول ما نعتبره عادة من البدهيات. ولذلك وجب أن نبدأ التفكير والترتيب من الخطوة الأولى لبناء مفاهيم الإسلام في نفوسنا.

فلا خلاف أولاً في أن الإسلام (دين)، وذلك هو معناه الجوهري الأساس، وهو معنى كلي قطعي، ثابت بالنصوص المتواترة كتابًا وسنة، وبالإجماع الكامل، ويكفيك من ذلك قوله تعالى الوارد على سبيل التقرير: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. لكنّ هذه الحقيقة -رغم بدهيتها- بدأت تهتز وتضطرب، بصورة واعية أو غير واعية لدى كثير من العاملين في الصف الإسلامي

من الحركة الإسلامية الحديثة، ونحن الآن بإزاء إعادة تفسير بدهيات، وجدنا أنها في حاجة إلى مراجعة وإعادة تقرير؛ لبناء منهج الاستدلال حول ما يحتدم حوله كثير من الاختلاف، في مناهج العمل الإصلاحي المعاصر ومفاهيمه. ومصدر الخلل نقص في إدراك معنى كلمة «دين» ودلالتها المفهومية في القرآن والسنّة.

## ❋ المبحث الثاني: الفطرية دراسة في الأركان والمسالك

الفطرية: مصدر صناعي من الفطرة. وهو دال على معنى دعوي، أي على (فعل) واقع في الفطرة ومن أجلها، سواء في النفس أو في المجتمع، ومن هنا سكه المؤلف مصطلحًا يعبر به عن مشروع دعوي عام، وعن تصور كلي للعمل الإسلامي، ولذلك جعل لها حدًّا، وستة أركان، وثلاثة مسالك.

فأما حدّها فهو: إقامة الوجه للدين حنيفًا، خالصًا لله، وذلك بمجاهدة النفس بالقرآن تلقيًا وبلاغًا؛ بقصد إخراجها من تشوّهات الهوى إلى هدى الدين القيم، ومن ظلمات الضلال إلى نور العلم بالله.

وبناءً على هذا التعريف، تكون (الفطرية) عملية إصلاحية وجدانية، تقوم على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان، المجبول أصلاً على إخلاص التوحيد، وإصلاح ما أصابها من تشوّهات تصورية وسلوكية في شتّى امتداداتها العمرانية.

والمصطلح المفتاح لمنهج التعامل مع القرآن في مدرسة (الفطرية) هو: (التلقي)؛ لأن التربية القرآنية في مجالس القرآن لا تكون إلا بتلقي الرسالات الكامنة في الآيات، تلك الرسالات هي التي تتضمن حقائق الإيمان المقصودة بالتخلق والتحقق، في طريق الدعوة والسير إلى الله صلاحًا وإصلاحًا.

**وأما أركانها فستة:**

١. الإخلاص مجاهدة: فإخلاص التوحيد ليس مجرد معلومات تلقّن، ولا منظومات تستظهر، بل هو حقيقة إيمانية عظمى، وخلق قرآني عميق، لا ينال إلا بمجاهدة ومكابدة.
٢. الآخرة غايةً: فهو ميزان الداعية المؤمن لتقويم صفاء دينه، وبوصلته لضبط مسار دعوته.
٣. القرآن مدرسةً: فهو الصبغة العامة للفطرية، بما هي قائمة أساسًا على تلقي رسالات القرآن، عبر برامج الربانية أو عبر مجالس القرآن، وقد تبين ألا إمكان لإصلاح الفطرة الإنسانية إلا بالقرآن.
٤. الربانية برنامجًا: فهو أحد مسالكها التربوية الرئيسة الهادفة إلى تخريج طبقة الدعاة المربين، وهم طائفة الربانيين الحاملين لرسالة القرآن، المشتغلين بدعوته في الناس أجمعين.
٥. العلم طريقةً: فهو راجع إلى كون العلوم الشرعية هي المسلك الأساس لبناء علم الناس بالله ودينه.
٦. الحكمة صبغةً: فهو صمام الأمان لسير العمل الدعوي، وقد كان غياب الحكمة سببًا رئيسًا في هلاك كثير من الدعوات واندثارها، أو انحرافها.

**وأما المسالك التربوية للفطرية فثلاثة، وهي:**

١. مجالس القرآن لتلقي آيات القرآن، والتخلّق بأخلاقها وبحقائقها الإيمانية.
٢. بلاغ رسالات الله بدعوة الناس إليها.

٣. رباط الفطرية، وهو أعمالٌ واجباتٌ، وتروك لازمات، وأذكار مندوبات مما صحّ عن الرسول ﷺ، فالرباط الفطري هو معراج المؤمن، وحصنه المنيع.

> **التربية القرآنية في مجالس القرآن لا تكون إلا بتلقي الرسالات الكامنة في الآيات، تلك الرسالات هي التي تتضمن حقائق الإيمان المقصودة بالتخلق والتحقق، في طريق الدعوة والسير إلى الله صلاحًا وإصلاحًا**

## الفصل الثالث: التجديد الفطرى (معالمه المنهجية وقضايا العمرانية):

### ❋ المبحث الأول: في المعالم المنهجية للتجديد الفطري:

أول ما ابتدأت به بعثة النبي ﷺ هو نزول آيات من القرآن، وكان ذلك حدثًا عظيمًا، لم يحصل بعده في سيرته ﷺ ما هو أعظم منه وأعجب، وقد بقي القرآن أداته ﷺ الأساس للدعوة إلى الله وتوحيده تعالى، وتدفق الإسلام على الناس وفشا بينهم، وكان المادة الأساس في تربية الجيل، من دار الأرقم وشعاب مكة، إلى الهجرة نحو المدينة، إلى الفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا، في ظرف زمني لا يتعدّى بضعًا وعشرين سنة؛ ففي هذه المدّة من التداول الاجتماعي للقرآن تربيةً وجهادًا يكون الإسلام دين الله المكين في الأرض، والدين الظاهر على كل الأديان والملل والنحل! إنها بعثة إذن.

وبتأمل السيرة النبوية واستقراء مراحلها، ونصوص الكتاب والسنة المتعلقة بها، وبمفهوم البعثة التجديدية، وبالنظر إلى حجم الفساد والانحراف الذي ضرب العالم اليوم؛ يمكن استخلاص المعالم الرئيسة لبعثة التجديد فيما يلي:

» المعلم الأول: التداول القرآني: إن أهم معلم وأوضح خاصّية يمكن ملاحظتها في البعثة النبوية ابتداءً هي ظاهرة التداول القرآني، ومعنى ذلك أن الاشتغال النبوي إنما كان بالقرآن أساسًا؛ بما حقق ما يمكن تسميته: (تداوليةً قرآنيةً) كبرى في المجتمع الإسلامي الأول.

» المعلم الثاني: الإمامة العلمية: إن حديث النبي ﷺ يحدد (إمامة) بعثة التجديد، وينصّ عليها بصورة واضحة لا غبش فيها ولا إبهام، وذلك قوله ﷺ: (إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر). بيد أن الوراثة هاهنا تقتضي إرث العلم بكل وظائفه الدعوية والتربوية، لا مجرّد العلم الخالي من كل عمل ومن أيّ رسالة.

» المعلم الثالث: يسر الدعوة وبساطة المفاهيم: إنّ من أهم معالم البعثة النبوية أنّها تميّزت باليسر والسهولة في الخطاب وفي التكليف، وقد تواتر في الدين مفهوم (رفع الحرج)، وما تعلّق به من قواعد، مما يجعله كلّية قطعية من كليات الدين دعوةً وتكليفًا.

» المعلم الرابع: التنظيم الفطري: ولعل هذا المعلم هو من ألطف حكم البعثة المحمدية، فقد كان رسول الله ﷺ منظمًا في عمله كلّه، لا ارتجال فيه ولا فوضى، ولا اضطراب ولا عبث، بل كل خطوة من خطواته ﷺ كانت بحسابها. والتنظيم الفطري عملٌ دعوي يجمع بين التلقائية وبين التوجيه، كما يجمع بين البساطة وبين العمق، وهو عمل تعبّدي بذاته، ومسلك إيماني بطبيعته. ومن هنا كان إنكار تنظيم الدعوة إلى الله والعمل الإسلامي التجديدي جهلاً بالدين، وانحرافا عن سنن الله في الكون وفي المجتمع.

لكنه تنظيم يختلف عن الحزبية الضيقة التي تحاصر الدعوة الإسلامية، وتجعل الدعاة في منفى اختياري بين شعوبهم ومجتمعاهم بسبب الغلو في بناء التنظيمات والجماعات؛ لذا كان التنظيم الفطري هو الطريقة الوسط التي تجمع بين التلقائية والتوجيه، وبين البساطة والعمق، ويقوم على ركنين:

الأول: بشري، وهم حُمَّال الدعوة من الفاعلين والمتفاعلين معها.

والثاني: الإطار الروحي للرسالات الدعوية.

**إن أهم معلم وأوضح خاصّية يمكن ملاحظتها في البعثة النبوية ابتداءً هي ظاهرة التداول القرآني، ومعنى ذلك أن الاشتغال النبوي إنما كان بالقرآن أساسًا؛ بما حقق ما يمكن تسميته: (تداوليةً قرآنيةً) كبرى في المجتمع الإسلامي الأول**

## ❊ المبحث الثاني: التجديد الفطري وقضايا العمران البشري:

ليس المقصود بالعمران هنا تخطيط البناء المادى وهندسته فحسب، كلا، وإنما المقصود به هندسة المذهبية الحضارية الكامنة في الإنسان، التي كان بمقتضاها كما كان.

العمران إذن: هو بناء الإنسان، بما هو عقيدة وثقافة، وبما هو حضارة وتاريخ، وبما هو فكر ووجدان، وبما هو نفس ونسيج اجتماعي. ودور الجيل الجديد اليوم هو تجديد ذلك العمران، بدءًا بتجديد الإنسان ككيان، حتى تجديد السلطان كمفهوم.

و(العمران القرآني) له قضايا رئيسة في بناء النفس والمجتمع، إليها تستند هندسته، وعليها يقوم بناؤه، فهي التي كانت تمثل اللبنات الكبرى في بناء البعثة المحمدية وعمارتها، وعليها كانت تدور أولوياتها التي نحسب أنها ثابتة لا تتغير بمصر ولا تتبدّل بعصر، وهي:

١. **التوحيد:** وذلك بالدعوة إلى عقيدة السلف الصالح، تعليمًا وتزكية، كما قررها القرآن، وكما كانت في الصدر الأول من الإسلام.

٢. **العبادة:** وأهم رموزها فريضة الصلاة، فالصلاة هي عماد الدين، وهي العهد الذي بين الرسول ﷺ وبين المسلمين، وتجديد الصلاة معناه: بعث مضمونها في الأمة وإحياء دورها العظيم الواصل بالله، الناهي عن الفحشاء والمنكر، والحافظ لحدود الله، وإحياء عمارتها ومركزيتها من المساجد والجوامع، وإظهار ما تبثه من مقاصد في المجتمع.

٣. **المجتمع:** ونواته الأولى إنّما هي (الأسرة) بالمفهوم الإسلامي، فالأسرة مفتاح فريد لكل تجديد، وهي أساس المجتمع، والخلية الأولى من نسيجه الكبير، وبتماسكها يتماسك المجتمع كله، وبتمزقها يتمزق كله.

**وللأسرة في الإسلام قيمتان أساسيتان، لابد من الانتباه إليهما عند التجديد:**

**قيمة العِرض:** وذلك على ما قرره علماء المقاصد في أصول الضروريات الخمس، فالعرض قيمة خلقية ترجع إلى أخلاق إسلامية كثيرة، من أهمها: الحياء والغيرة.

**قيمة الرّحِم:** بمعناه الاصطلاحي الشرعي، والذي يقصد به: مجموع العلاقات الشرعية التعبدية التي تنشأ عن الزواج الشرعي وما يترتب عليه من نسل، وهي: علاقات الأبوة، والأمومة،

والبنوة، والجدودة، والعمومة، والخؤولة...إلخ. ومعنى كونها علاقات تعبّدية: أي أنّها راجعة إلى اعتبار الشرع لها بالدرجة الأولى، لا إلى مجرّد الاعتبارات الطبيعية والبيولوجية، ومن هنا كانت شعيرة من شعائر الإسلام، يُعبد الله بها إنتاجًا شرعيًا أولاً، ثم برًّا وتوقيرًا، ثم خدمة وصلة؛ لأن في تأسيسها وإنتاجها تأسيسًا للدين، وإنتاجًا لمفاهيمه في النفس وفي المجتمع، وفي صلتها صلة لآصرته الإيمانية في الأجيال.

٤. **علم الدين:** والعلم ركن من أعظم أركان البعث والإحياء، غايةً ووسيلةً، فبالعلم كانت هذه الأمّة، وبه تكون مرة أخرى بحول الله. والطريق الفعلي لذلك يكون ببناء أمرين، هما: التأهيل، من خلال تكوين نُخب من الشباب تحمل العلم الشرعي؛ حتى يتحققوا بمفهوم العالمية بكل معانيها التخصصية والتربوية. والتأصيل، وهو راجع إلى مشروع تحقيق قضايا العلوم الشرعية عامّة، وبخاصّة الأحكام الفقهية منها، بربطها بأدلتها، وبناء مناهج استدلالها، ومقارنة مذاهبها، والقصد من ذلك كلّه هو إحياء الثقافة الفقهية الأصيلة، وتجديد الملكة الاجتهادية، وإعادة بثّ أدب الخلاف في الأمّة.

## في تجديد المناهج العلمية:

نحن في حاجة إلى تجديد قضايا العلم، ولكننا في حاجة أشد لتجديد مناهجه، وتجديد المناهج هو الكفيل بتأطير بعثة التجديد وإسنادها على المستوى العلمي، ومناط التجديد المنهجي يكون بإحياء الصناعة الفقهية المقاصدية، بضوابطها الشرعية بعثًا وتجديدًا.

والحاجة ماسة اليوم –على مستوى تجديد الفقه– إلى ثلاثة أعمال منهجية:

١. الأولى: بعث الثقافة الفقهية التراثية فهمًا وتداولاً.

٢. الثاني: تجديد أصول الفقه بعمقه المقاصدي.

٣. الثالث: تجديد أصول الفقه السياسي.

## خاتمة:

تبيَّن من خلال مسالك الفطرية أن واجبات المسلم التربوية والدعوية في هذا العصر ثلاثة: التزام مجالس القرآن، وبلاغ رسالات الله، والتزام الرباطات العبادية، مع عرض سائر الأعمال على أركان الفطرية الستة السابقة.

فتلك أصول دينية صحيحة، وقواعد تربوية مليحة، عُدّها وعَضّ عليها بالنواجذ، وإنما الموفق من وفقه الله.

# المشاعر

د. هشام السوادي

هي عزفُ القلب على أوتار الحياة المختلفة، يعبر عنها لبُّ الإنسان بنبرة لها جرس معين، يختلف هذا الجرس باختلاف عزف القلب على ذلك الوترِ. قد يُغنّي قلمُ اللسان شعرًا معها، وقد تُطرب بعزفك صديقًا مقرَّبًا، وقد تروي دمعةٌ حكاية المطر.

المشاعر حكايةٌ طويلة، تعجز ريشة ثغر الإنسان عن رسمها في لوحةٍ شعريةٍ فنية. ستمر عليك أيام تقطع فيها تلك الأوتار؛ ليتوقَّف القلبِ عن ذلك العزف. قد يكون ذلك لأجْل أن تربط أوتارًا جديدةً، أو لتُصلح بعض أوتارك المتهالكة. سيحار القلب كثيرًا في تعبيره؛ فليس له من متنفَّس سوى هذه الأوتار الجميلة. هي فترة تسرق من القلب جماله، وتغطيه لتحميه من الإعياء بسبب عزفه المستمر. قد تؤذيه من جانبٍ وقد تحميه من جانب آخر.

هي قصةٌ وحكايةٌ طويلة، للألم فيها باع، وللصبر فيها باع، وللأمل فيها باع، حتى نكمل مسيرة الحياة الجميلة.

# الدين الجديد

أ. محمد سليم غزال

أدبرْ عن الشرق إنَّ الشــرقَ (تكفــيري)
واستقبل الغرب تظفرْ باسم (تنويري)
دعْ مــالكًا وابــن إدريسٍ وأحــمدَ والـ
ـنّعمــانَ وافــزعْ إلى دين الشحـــاريرِ
تجـــدْ هنـــاك قــراءاتٍ معــاصــرةً
وتــلــقَ مـــا شــئت من فــقْهٍ وتفسيرِ
(أئمةٌ) أبصــروا مــا لــم يَــرَ العُــلَمــا
لــيُخــرجــونا من الظــلــمـــاء للنــورِ
مــا ضــرّهم عُجْــمةٌ تبــدو بمَــنْطِقِهمْ
وأنَّ عــلمَــهُــمُ حَــسْــوُ العـــصــافــيرِ
وحســبُهــم أنَّهــم قــد أبــدعــوا لــغــةً
مــا فــرّقــتْ بين مــنصــوبٍ ومــجرورِ
وأنــهـــم عــلّــمونـــا أنّ مــا تــركَ الـ
أجـــدادُ فَــهْــوَ خــرافات الأســاطـــيرِ
فَكِلْ بِمكــيــالِ (كَيّالي) إذا اشــتبــهــتْ
لكَ الأُمـــورُ وبِـــعْ عُــســرًا بتــيــســيرِ
وفي الكــتـــاب إذا مــا آيــةٌ غَــمَــضــتْ
عــلــيــكَ يوضِــحُــها تغــريدُ (شحرورِ)
هذا الجــديدُ فــدعْ عنكَ القــديــمَ وخُــذْ
فــرائدَ العــلمِ مــن تخــليــطِ مخــمــورِ



الصفحة السابقة
الفهرس
الصفحة التالية

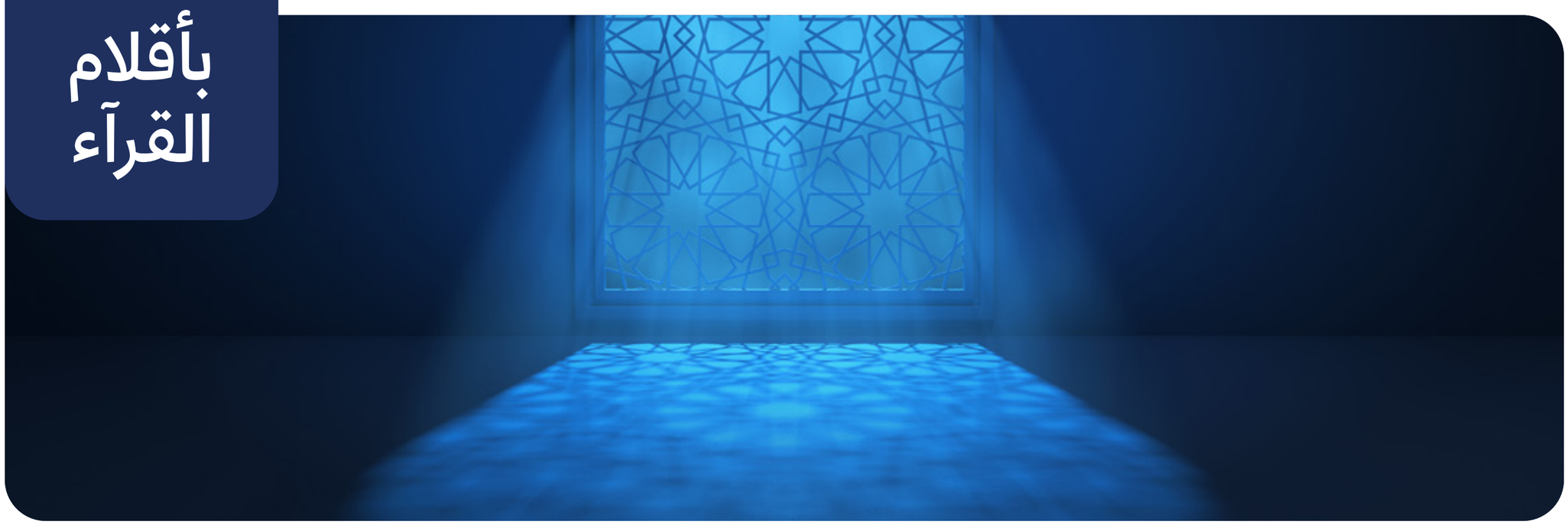

# اقصد ربك

أ. رائد درمش

لطالما غمر قلبي الأُنس والطمأنينة وأحسست بغنى كبيرٍ لا تُغيِّره فاقة، ينبوعُه عبوديةُ الله والافتقارُ إليه سبحانه، والاستغناءُ عن الخلق، استغناءٌ يجعلني أنظرُ لمن بلغ في الغنى الماديِّ على أنَّه إنسان، وإنسان فقط! لا يملكُ لنفسِهِ ضرًّا ولا نفعًا، لستُ بحاجةٍ إليه ولا أطمع فيما عنده، إنما الطمع والرجاء والمبتغى فيما عند ربي سبحانه!

ويا لتعلُّق القلب إذا تعلَّق بالله! يومض بالمحبة ويتَّقد بالشوق، يُسبِّح ربَّه ويَلهج بذكره بالغُدوِّ والآصال، والقلبُ إذ يشهد ألا إله إلا الله؛ فإنَّه يقرُّ شاهدًا على قلبه أنَّه لا يتعلَّق إلا بالله، رغبةً ورهبةً ومحبةً. فاقصد الأكبر -جلَّ في عليائه- واترك الأصغر! ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؟ بلى يا رب! وإنَّ من كفاه الله حفظًا وتفضلاً وإنعامًا لهو الغنيُّ في هذه الدنيا التي يتقاتلون من أجلها!

يرفُّ قلبي محلقًا كلما قرأت حديث النبي الكريم ﷺ: (إذا تمنَّى أحدكم فليُكثِر، فإنما يسأل ربَّهُ عز وجل)، جُعلتُ فداءً لك يا رسول الله! فليكثر في مسألته! لماذا يا رسول الله؟ فإنما يسأل ربه! ألا يكفيك يا حبيب أخيك أن تسأل ربَّك؟ ربك الذي بيده خزائن السموات والأرض، الرزَّاق، الكريم، الجواد، سبحانه ذو الفضل العظيم، والإحسان العميم، تفضَّل على جميع خَلْقه بنعمه التي لا نحصيها فضلاً عن شكرها!

اقصد ربك أيها المبارك، وسيسخِّر لك من حولك!

# موعظة في ملهى

أ. عبد الله صدّيق

شاهدت مقطعًا بدأ فيه المشهد بقيام أحد أعضاء ما يسمى «لجنة التحكيم» بالضغط على الزّر الذي يعني فشل المتسابق وخسارته، كما ضغط على الزرّين الآخَرَين أمام بقية أعضاء اللجنة دون رضاهما، وذلك لمجرَّد أن رأى الضيفَ يحملُ معه مصحفاً، وقال: «تريدون إضاعة وقتنا»!

فانبرى الضيفُ الشابُّ بخطبةٍ حول أنَّ ضياع الوقت الحقيقي هو ما تتحرَّونه في هذا البرنامج من أشياءَ لا فائدة فيها ثم تسمّونها «مواهب» بينما مَهمَّتنا تدبُّر القرآن والانطلاقُ فيما ينفع الناسَ من عمارةٍ وحضارة، لقد حِدْتُم عن الطريق بتقليدكم للغربيِّين ممَّن لا يعرفون الآخرة، ويبحثون عن السعادة في الدُّنيا. فنال قولُه استحسانَ الجمهور حتى صفَّقوا له، ما أجبر اللجنة على الثناء عليه.

وبغض النظر عن صحة المقطع من عدمه فهو يُوضح كيف يعمل أهلُ الباطلِ، وكيف أنَّ الخيرَ موجودٌ في قلوب كثير ممن حادَ عن الطريق القويم، ويحتاجون من يذكّرهم ويعيدهم إلى الصواب.

وهو يذكرنا بقصة ذكرها الطنطاوي عن شيخ قصد مرقصًا ليدعو من فيه، فلم يخرج إلا بتوبة الحاضرين، والعبرة أنَّ الدعوة مطلوبة حتى في الأماكن غير المتوقعة، فلا تدري من يستجيب لك بعدها.

# بين الأَرْضَيْن

د. خير الله طالب

قَتلَ تسعةً وتسعينَ نَفسًا، ثم كمّل المائة بالعابد الذي أغلق عليه باب التوبة، أما العالِم فقال له: ومَن يَحُولُ بينك وبينَ التوبةِ؟ ثم أمره بتغيير بلده وبيئته، فأصابه الموت منتصفَ الطريق، فكان مصيره بحسب مكانه الذي بلغه، حيث كان أقرب إلى بلد التوبة التي قصدها، كما حكم بذلك الملَك الذي فصَلَ بين ملائكة الرحمة والعذاب -حين اختلفوا في أمره- بأن قال: (قِيسُوا ما بينَ الأَرْضَيْنِ)[١].

نجا ذلك القاتل التائب من ثلاث عقبات تعتري الإنسان في طريق التوبة والتصحيح والتغيير:

لا يعتقد مسلمٌ عصمته من الخطأ، لكنه قد يعيش نفسية العِصمة، حينما لا يستطيع تعداد أخطائه. فإذا أراد تحليلَ الأمور ودراسة أسباب النكسات لم يجد إلا أن يرمي غيره بالخطأ على سبيل العموم أو التعيين، فيزيد من تعظيم نفسه وتنزيهها، وارتكاب سوء الظنِّ بالآخرين وشيطنة أفعالهم واتِّهامهم أنَّهم مادّة الخطأ وحدهم، مما يمنعه من التكامل والتوافق مع أولئك الذين يراهم هم المفسدين والمخطئين.

تلكم العقبة الأولى التي قد يقف عندها بعض النخبة والموجهين قبل غيرهم؛ لقُدرتهم على تخريج الأمور وفلسفة التبرير في صُورٍ وذرائعَ شتى تجعلُهم بمنأى عن محاسبة النَّفس، متناسين ميل القلوب نحو الجاه والمال المفترسَيْن

(١) القصة في صحيح مسلم (٢٧٦٦).

# بين الأرْضَيْن

د. خير الله طالب

لدِين صاحبهما، غافلين عما قد يقع من مخالفاتٍ شرعيةٍ تبدو اجتماعية أو إدارية، في شؤون العلاقات والمسؤوليات والمؤسسات والمشروعات والاجتماعات والأموال، فإنَّ الإنسان الخطّاء لا بدَّ أن يكون عمله كثير الأخطاء.

أما العقبة الثانية التي تعترض بعض من أوتوا شجاعةً لفظيةً في إعلان أخطائهم فهي اكتفاؤهم بذلك الإعلان، وغفلتُهم عن مسؤولية اجتناب الخطأ وتحمّل ضريبته ومعالجة أسبابه ومجاهدة دوافعه، متكاسلين عما فعله القاتل التائب من مغادرة أرضه.

ما أشقَّه على النفوس من قرارٍ يغادر به صاحبُه منطقة الراحة ساعيًا في تغيير بيئته، وقد يرحل عن بلده أو منصبه، أو يبيع دارَه بعيدًا عن جار السوء المؤذي له في دينه وولده، أو يفكُّ شراكته الرابحة مع تاجر الحرام، أو يستقيل من وظيفته التي يُعين بها الظالم أو يُساند بها الربا، أو يرفُض الترشح لمنصب يُساوَم فيه على قضيته أو دينه أو قِيَمه. وخير الخطائين التوابون.

مجتازو هذه العقبة الثانية قد تغلبهم العقبة الثالثة المتمثلة في الندم والانقطاع لطول الطريق وكثرة أعبائه؛ جاهلين أن المطلوب منهم خُطوة، والله يعينهم على التالية، وأنَّ عليهم صدقَ العزيمة وجديةَ المسير وتركَ الالتفات، والله تعالى يُتم لهم

# بين الأرْضَيْن

د. خير الله طالب

الطريق، حتى لو قطعه دونهم الظلمة والمستبدُّون ومن يجلبون المشقّة على الناس.

ما أحوج الذين قرَّروا أن يقولوا كلمة حقٍّ عند سلطان جائر، فصدحت حناجرهم برفض الظلم والمهانة، وبذلوا كل ما يملكون لمؤازرة الثائرين، ورابطوا سنين مجاهدين، ثم هُجِّروا من ديارهم وأموالهم.. ما أحوجهم أن يُجدِّدوا الأمل في ربهم عزَّ وجلَّ الذي تاب على قاتل المائة ورحِمَه بمجرَّد سيره دون وصوله، فكيف بالمقتولين والمشرَّدين، الذين انتقلوا ووصلوا من حالٍ إلى حال، ومن دارٍ إلى دار، ومن معركةٍ إلى معركة، ومن محاولةٍ إلى أخرى، ومن مشروعٍ إلى غيره.. يحاولون تحطيم القيود والسدود، ومدافعةً الظلم والفساد!

ألا إنَّ ضمانة استمرار تلك المسيرة المشرِّفة: وقفةٌ مع النفس لتجديد النوايا، وتجريد المقاصد، ونبذ المخاوف، ثم السعيُ في أوْبةٍ جماعيةٍ صادقةٍ تعملُ على: جردِ المنجزات، ودراسة المسيرة، والتطلُّع للأمام، والاعتبار بالتاريخ، والتأسّي بالحبيب ﷺ، والاقتداء بالأنبياء والأصفياء والأخفياء والمصلحين، والاستفادةِ من تجارب الناهضين الذين ما تحرَّروا إلا بضمانة التصحيح المستمرّ التي تُحرِّرهم من نفوسهم، وإلا كانوا هم أنفسهم ثورة مضادّة.

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية
ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

**كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)**

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

أكاديمية
تأصيل الوعي

تعلن

# أكاديمية تأصيل الوعي

عن إطلاق

# دبلوم التزكية والسلوك

« مع بداية السنة الجديدة ٢٠٢٣م »

www.islamicsham.org

islamicsham2 islamicsham

هيئة الشام الإسلامية